ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٣ ، السنـــــة : ٥٠

ربيع الأول ١٤٤٧هـ ، سبتمبر ٢٠٢٥م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- من أهداف الهجرة — التحرير — ٣

كلمة العدد

- قوة التفكير من خصائص البشر — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩
- شبهات و ردود — المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ — ١٥

دراسات إسلامية

- الهجرة النبوية المباركة .. رحلة الفصل بين الحق والباطل — الدكتور عدنان عبدالبديع اليافي — ٢٣
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ٢٨
- لوحة الشرف للرعيل الأول من المؤمنين — الأستاذ عبد المنعم النمر — ٣٧
- من حديث القرآن عن الرسول ﷺ — الأستاذ محمد الدسوقي — ٤٤
- الرّسول المعلّم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — الشيخ عبد الفتاح أبو غدة — ٥١

إشراقة

- لقد رأيت من إعجاز هذا القرآن عجبًا — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

من أهداف الهجرة

يدخل على الأمة الإسلامية- وهي تمر بأشد مراحلها التاريخية حرجًا وخطورة- شهر ربيع الأول ... شهر هاجر فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على أرجح الأقوال- من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ... شهر يدعو المسلمين إلى قراءة أحداث الهجرة قراءةً واعيةً، وتبين حقائقها وأهدافها وملابساتها على أدق وجهٍ. فالهجرة النبوية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامرة بدروس وعبر و دعوة و ترغيب في التضحية بأغلى ما يملكه المرء في سبيل دينه، والثبات عليه في أحرج مواقفه في الحياة ... التضحية بالنفس والمال والأهل والوطن الذي تنفس في جوه وشرب من مائه، وشهد مدارج صباه وشبابه وذكرياته وأحلامه و آماله. قال الله تعالى مؤكدًا على ضرورة الهجرة إذا احتاج الأمر إلى ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٧-١٠٠].

ولم تكن الهجرة – هجرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة المنورة أو أصحابه إلى الحبشة و إلى المدينة المنورة- فرارًا بأنفسهم من أذى أهل مكة، وتخلصًا من أوضاعها القاسية، وانسحابًا من مهمة الدعوة والتبليغ، ولا استسلامًا بعلة أنهم بذلوا في نصح كفار قريش ودعوتهم إلى الحق ما استطاعوا إليه سبيلا أو ألقوا بالتبعة على الأوضاع الخارجية، وإنما كانت الهجرة تعني التحولَ من أرضٍ أصيبت بالعقم والإعراض عن دين الله تعالى إلى أرض أكثر خصبًا وعطاءً، ورحبًا للدعوة، وقبولًا أوسع للدين الحق.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده [برقم:١٥١٩٢] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي يعرض نفسه على الناس بالموقف، فيقول: «هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عَزَّ وجَلَّ؟». فأتاه رجل من همدان، فقال: «ممّن أنت؟»، فقال الرجل: من همدان. قال: «فهل عند قومك من منعة؟». قال: نعم، ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه، فأتى رسول الله، فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل، قال: «نعم» فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب».

وفي صلح الحديبية قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين بلغه أن قريشًا اجتمعت لمنعه من دخول مكة: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة - أي: يجعل بينه وبينهم مدة يترك الحرب بينه وبينهم فيها- ويخلّوا بيني وبين الناس» - أي: يتركونه يدعو الناس إلى الإسلام. فكان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحرص الناس على دعوة الناس إلى الإسلام في السلم والحرب. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأحد: ١٤٤٧/١/١٠ = ٢٠٢٥/٧/٦م)

قوة التفكير من خصائص البشر

قوة التفكير عند الإنسان قوة أساسية مبدئية فيه، تخضع لها جميع القوى المعنوية الأخرى التي يتمتع بها الإنسان، وهي عالة على هذه القوة الفكرية. فليس للبشر أن يخطو خطوةً واحدةً في ميدان من ميادين الحياة في غنىً عن قوة التفكير. فالقوة المحركة والدافعة لجميع القوى البشرية المعنوية من الحواس الخمس أو العقل والفهم، والذوق والوجدان أو البصيرة والفقه والحديث والتجربة أو القيافة كلها هي القوة الفكرية في الإنسان. وإذا تعمقنا في دراسة هذه القوة الفكرية وجدناها تتحكم في جميع القوى البشرية وهي الروح السارية فيها، فكلها طوع بنانها ورهن إشارتها في التحرك والعمل. وقد نبه القرآن الكريم في كلامه المعجز على هذه الحقيقة وكشف القناع عنها، فالأمم التي كانت تستخدم قواها الحسية من بصر العين وسماع الأذن ونحوها في مشاهدة معجزات الأنبياء، والاستماع لكلامهم، دون أن تبدي رضاها والاستسلام لها، فإن القرآن الكريم لم يرد ذلك إلى عمى عيونهم أو صمم آذانهم؛ بل رده إلى عمى القلب، وهو في الواقع عمى هذه القوة الفكرية، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

يقول الإمام الرازي: «أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار؛ لأن الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار، وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل، ولكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبر القلب؛ لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع البتة، ولو تفكر فيها وسمع لانتفع، فلهذا قال: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ، كأنه قال لا عمى في أبصارهم؛ فإنهم يرون بها؛ لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه (تفسير الآية).

ويقول الشيخ شبير أحمد العثماني(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م) في تفسير الآية: «إذا نظروا بعيونهم ولم يتأملوا بقلوبهم، فالنظر وعدمه سيان. فهم وإن فتحوا عيونهم الظاهرة؛ ولكن عميت عيون قلوبهم. وشر العمى عمى القلب».

ويقول الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي (١٣١٧-١٣٩٤هـ/١٩٠٠-١٩٧٤م) في تفسير الآية: «المعنى أن هؤلاء المكذبين المنكرين ما داموا ينظرون إلى قرى المعذبين، ثم لايعتبرون بها، فتبين أن قلوبهم عميت. فهم يحملون البصر، دون البصيرة، والأعمى في الواقع هو الذي عمي قلبه».

ودل ذلك على أن الروح السارية في الحواس، ومناطها هي القوة الفكرية القلبية،لا نظر العين؛ فإن الحواس- وإن أقبلت على النظر والاستماع- تعود عمياء إذا انعدمت قوة التفكير، ومن هنا أنكر القرآن الكريم- وإن اعترف بنظر الحواس وسماعها في الظاهر- فاعليةَ هذه الحواس في الكفرة وتأثيرها فيهم إذا لم يتحقق غرضها وهدفها الحقيقي الذي يرتبط بقوة التفكير، التي تستخرج من مظاهر هذه المحسوسات روحها. فيقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:٤٢-٤٣].

وهذا يشير إلى أن التصامم عن الشيء بعد سماعه، والتغاضي عن الشيء بعد رؤيته مما ينشأ عن العطل الفكري. فالمبصر والمسموع الذي أعوزه الشعور الأساسي الذي لايمتُّ بصلة إلى تفكير القوة المفكرة وتأملها، فهو في الواقع غير مبصر وغير مسموع. وقد صرح القرآن الكريم في آية أخرى بأن الكفرة الذين يسمعون ويرون أقوال الرسول وأفعاله، ويحملون قوة السمع والبصر، ولكنهم فقدوا التفكير القلبي أو لم يمارسوا قوة التفكير؛ فإن حواسهم هذه لاتحمل أهمية أكبر من حواس الحيوانات؛ فإنهم فقدوا الشعور الفكري الذي يشكل الرؤية والسماع بمعنى الكلمة، و الذي سماه القرآن الكريم بفقه القلب، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

يقول الزمخشري في تفسير الآية: ﴿كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم- لإعراقهم في الكفر وشدّة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار- مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار».

وقال الرازي في تفسير الآية: «أما قوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فتقريره أن الإنسان وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة الغاذية والنامية والمولدة، ومتشاركة أيضًا في منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة، وفي أحوال التخيل والتفكر و التذكر، وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في القوة العقلية و الفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به: فلما أعرض الكفار عن اعتبار أحوال العقل والفكر ومعرفة الحق والعمل بالخير كانوا كالأنعام. ثم قال: (بَلْ هُمْ أَضَلُّ)؛ لأن الحيوانات لا قدرة لها على تحصيل هذه الفضائل، والإنسان أعطي القدرة على تحصيلها، ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخس حالا ممن لم يكتسبها مع العجز عنها. فلهذا السبب قال تعالى: (بَلْ هُمْ أَضَلُّ)».

يقول العلامة أشرف علي التهانوي(١٢٨٠-١٣٦٢هـ/١٨٦٣-١٩٤٣م) في تفسير الآية: «(لَهُمْ قُلُوبٌ) اسمًا، وهي في الواقع (لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) الحق، فإنهم لايريدونه أصلا، (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ)اسمًا، إلا أنهم (لَا يُبْصِرُونَ) ينظرون نظرة استدلال (بِهَا) شيئًا من الأشياء، (وَلَهُمْ آذَانٌ) اسمًا، ولكنهم (لَا يَسْمَعُونَ) لايصغون (بِهَا) إلى الحق، والحاصل أن (أُولَئِكَ) بالنظر إلى الغفلة عن الآخرة (كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) أبعد طريقًا من هذه الأنعام، بالنظر إلى أن الأنعام غير مكلفة الإقبالَ إلى الآخرة، فلايذم عدم إقبالها إليها، وهؤلاء مأمورون به، ثم يعرضون عنه (أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) رغم التوجيه إلى الآخرة».

ويقول الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي (١٣١٧-١٣٩٤هـ/١٩٠٠-١٩٧٤م) في تفسير الآية: «وهؤلاء المنكرون المعاندون (لَهُمْ قُلُوبٌ) ولكنهم (لَايَفْقَهُونَ بِهَا) الحق، (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا) آيات القدرة ودلائل النبوة، (وَلَهُمْ آذَانٌ) ولكنهم (لَايَسْمَعُونَ بِهَا) الحق. فكان لهم قلوب وعيون وآذان، ولكن ضلوا لحرمانهم التوفيق الإلهي، فهؤلاء الذين يوجهون الحواس والقوى المدركة إلى اللذات والشهوات الفانية في الدنيا (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ)التي لايهمها إلا الأكل والشرب والنوم، (بَلْ هُمْ أَضَلُّ)أشد ضلالا منها؛ فإن الحيوان يعرف مالكه، ويعرف ما ينفعه وما يضره، وأما هؤلاء فلايدركون-وإن كانوا بشرًا- ما يضرهم أو ينفعهم في الآخرة (أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) عن الآخرة رغم التنبيه عليها؛ لأن شهواتهم قهرت عقولهم».

وفصَّل المفتي محمد شفيع رحمه الله (١٣١٤-١٣٩٦هـ/١٨٩٧-١٩٧٦م) الكلام على هذه الآية فقال في تفسيرها: «نفت هذه الآية عن هؤلاء العقل والبصر والسماع، فلايفقهون ولا يبصرون ولايسمعون في حين أن الواقع المشاهد يقول: إنهم ليسوا مجانين، لايفقهون شيئًا؛ ولا عميًا لايبصرون شيئًا؛ ولا صما لايسمعون شيئًا؛ بل نشاهدهم أكثر فهمًا وذكاءً من معظم الناس في الأمور الدنيوية. والحق أن الله تعالى أودع كل شيء خلقه من العقل والشعور ما يلبي حاجته، وينسجم مع مقصد حياته، فما نراه فاقد الحس والشعور ونصفه بهما، ليس في الواقع صفر اليدين من الحس والإدراك والعقل و الشعور، إلا أن له من ذلك ما يكفي في تحقيق هدف وجوده، فأقل الأشياء عقلًا وشعورًا وحسًّا هي الجمادات، من الطين والحجر ونحوهما، فليس لها أن تقرأ أو تتحول من مكانها أو تتجول. وهذه المقومات فيها قليلة جدا حتى لاتكاد تعرف فيها آثار الحياة، وفوق ذلك النباتات التي من هدف وجودها النمو والإثمار، فأعطيت من العقل والإدراك ماياسبها. ثم الحيوانات، فمن هدف وجودها النماء والتحول من مكان إلى آخر، وتحصيل غذائها بهذا التحول بالإضافة إلى التوقي والفرار مما يضرها، وكذلك التناسل والإنجاب. فما أعطيت من العقل والشعور فوق غيرها، ولكنه بالقدر الذي يعينها على تدبير أمورها في الطعام والشراب والمنام واليقظة، ووقاية نفسها من الأعداء. وآخرها

الإنسان، فالهدف من وجوده أكبر وأجل من غيره من الخلق؛ فمن أهداف وجوده أن يعرف خالقه ومربيه، ويتبع رضاه، ويتوقى ما يكرهه، وينظر في حقائق الخلق كله، ويستخدمه، ويتأمل في نتائج كل شيء وعواقبها، ويميز الغث من السمين، والزيف من غيره، ويتقي الشر، ويلتزم الخير. ومن خصائص النوع البشري هذا أنه توفر له ميدان أفسح للرقي والتقدم ما ليس لغيره من أنواع الخلق. فهذا البشر يسمو ويتقدم حتى يتجاوز صفوف الملائكة، ومن ميزاته أنه يجازي ويعاقب على أعماله وأفعاله. فما أعطيه من العقل والشعور يزيد على ما أعطيه غيره من الخلق كله. وذلك كي يسمو عن عامة الحيوانات ويقبل على الأعمال التي تناسب هدف وجوده، ويصرف في ذلك ما خصه الله تعالى به من العقل والشعور، والبصر والسماع... وحيث تبين أنه يجب أن يختلف الإنسان في إدراكه وفقهه وبصره وسماعه عن غيره من الحيوانات، فإنه لو ذهب ينفق هذه القوى من العقل والبصر والسماع فيما ينفقها الحيوانات الأخرى، وأعرض عما كان يخص الإنسانَ من النظر في نتائج وعواقب كل شيء، ويتقي السيئات ويأتي الحسنات، فإنه لايسع أن نصفه إلا بفاقد العقل وإن كان يحمله، ونَصِفه بالأعمى وإن كان بصيرًا، ونصفه بالأصم وإن كان سميعًا، ومن أجل ذلك وصف القرآن الكريم أمثال هؤلاء في آية أخرى بقوله: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة:١٨]... وهذه الآية الكريمة لاتتعرض لعجزهم عن فقه ما يخص طعامهم وشرابهم، ومعاشهم، ومنامهم ويقظتهم من الحاجات، أو عجزهم عن إبصار وسماع ما يخص ذلك؛ بل صرح القرآن الكريم في آية أخرى عنهم: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧]. وقال عن فرعون وهامان وأممها: (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) [العنكبوت:٣٨]. ولكنهم لم يصرفوا هذه القوى إلا فيما صرفها عامة الحيوانات من خدمة أجسادها. فلم ينظر ولم يتأمل هؤلاء في العناية بروحها وإراحتها، فمهما يكسبوا من الرقي والازدهار في المعاش والعمران، ويغزوا القمر والمريخ، ويملؤوا الدنيا بالسيارات الصناعية؛ ولكن هذه العناية كلها تنصب على الكيان الجسدي والبطن، ولاتتجاوز ذلك إلى ما يوفر للروح راحة ونعيمًا أبديًّا. فيطلق عليهم القرآن الكريم «الصم»، وتنفي هذه الآية عنهم العقل والفهم، والإبصار والسماع. والمعنى: لم يفقه هؤلاء ما كان يجب عليهم فقهه، ولم يبصروا ما لزمهم إبصاره، ولم يسمعوا ما تحتم عليهم سماعه. وما فقهوه وأبصروه وسمعوه لايتجاوز مستوى عامة الحيوانات، يشاركهم فيه الحمار و الفرس والبقرة والشاة... ومن أجل ذلك انتهت الآية الكريم بقوله سبحانه: (أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ)، لايعنيهم إلا الكيان الجسدي، وليس مبلغ سعيهم غير الخبز والبطن.ثم قال: (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) أكثر ضلالا وسفهًا. وذلك لأن الحيوانات غير مكلفة بالأحكام الشرعية، وليس لها الجزاء والعقوبة، فيصح أن يقتصر هدفها على إصلاح الحياة الحاضرة وكيانها. وأما البشر فإنه يحاسَب على

أعماله، ويجازَى ويعاقب عليها، فاعتباره هذه الأمور هدف حياته سفه أشد من الحيوانات. ثم إن الحيوان يخدم صاحبه ومالكه كل خدمة،وأما الإنسان العاصي فيقصِّر في خدمة مولاه، فكان أضل وأسفه وأشد غفلة من الحيوانات، فقال: (أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)».

ويؤخذ مما سبق أن مجرد الشعور القلبي الطبيعي ليس قوام الأمر وملاكه؛ وإنما هو فقه القلب، ويسمى بالقوة الفكرية، وإلا فإن الحواس تعجز عن أعمالها أو تصير أعماله غير معتبرة، و لايلتفت إليها. فالأصل هو النور القلبي المسمى بالفكر لا الشعور القلبي الذي يحظى به حتى الحيوانات.

ومن هنا جاءت دعوة القرآن الكريم الإنسان إلى التفكر والتأمل والنظر في كثير من الآيات، وعلى مستويات عدة، فحينًا يدعوه إلى التفكير في الآيات الأنفسية، وحينًا في الآيات الشرعية والعلمية، وحينًا في الآيات الوجدانية واللدنية. فيأمره بالتفكير والتأمل في آيات الأنفس في قوله سبحانه: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الذاريات:٢١]. يقول الزمخشري في تفسير الآية: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ» في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق: ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها و لطائفها: من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر، دع الأسماع والأبصار و الأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف و التثني، فإنه إذا جسا شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين».

وحينًا يقدم له الآيات الآفاقية، فيقول الله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وحينًا ثالثًا يجمع له بينهما، فيقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]. وحينًا يطرح له الآيات الشرعية ويأمره بالتأمل والنظر فيها، فيقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. وحينًا يدعو إلى النظر والتفكير في حياة الرسول الخاتم وسيرته الطيبة، فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]. ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٤] (خطبات حكيم الإسلام).

وحاصل القول أن القوة الفكرية هي التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الحيوانات، وهو الفصل المميز لحقيقة البشر، وبه ينفتح أبواب العلم والمعرفة، وهو القيم على القوى البشرية الظاهرة والباطنة.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(من سورة الأعراف ١٢٨-١٤٢)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

أي لا داعي للفزع والخوف؛ فإنه لايقوى أحد على الله تعالى، فالملك له، يعطيه من يشاء، فاستيعنوا به على الظالم، وإياه اخشوا، واسلكوا سبيل الصبر والتقوى، واعلموا أن الفلاح للمتقين وحدهم.

قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

أي نحن في أذى دائم، فقد كانوا يسخِّروننا قبل أن تأتي، وكانوا يقتلون أولادنا، واستمرت أنواع من الشدة والبلاء بعد أن جئت، وهم يتشاورون في قتل أبنائنا، وليت شعرنا متى نتخلص من هذه البلايا؟

فائدة: فطمأنهم موسى عليه السلام، وقال لهم: لاتفزعوا، عسى أن ينصركم الله، فسيُهلك عدوكم، وتُملَّكون أموالهم، وذلك كي يختبر مدى شكركم على هذه النعم، كما يختبركم اليوم بالشدة والرق. ويقول الشاه رحمه الله: ساق هذا الكلام لإسماع المسلمين، والسورة مكية، وكان المسلمون يعانون مثله من الظلم والاضطهاد، فبشرهم في هذه الآية بذلك عن طريق سوق الكلام في غيرهم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

قال في الآية السابقة: (عَسٰى رَبُّكُمْ اَنْ يُّهْلِكَ عَدُوَّكُمْ)، وهذا تفصيل لبعض مبادئ هذا الهلاك الموعود، أي حسب هذه السنة الإلهية- التي سبق ذكرها في أول هذا الجزء في قوله: (وَمَآ اَرْسَلْنَا فِيْ قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ اِلَّآ اَخَذْنَآ اَهْلَهَا بِالْبَاْسَاۗءِ وَالضَّرَّاۗءِ

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

لَعَلَّهُـمْ يَـضَّرَّعُوْنَ) [الأعراف:٩٤] سلط الله تعالى عـلى آل فرعـون – كتنبيـه أولي- بعـض المـصائب والشدائد من القحوط والسنة، ليستيقظوا من سبات غفلتهم، ويستجيبوا لنصائح موسى عليه السلام النبوية؛ ولكن أنى لهم أن يستجيبوا؟! فإنهم لم يبالوا بهذه الزواجر؛ بل ازدادوا عنادًا و وقاحةً. فكانوا- إذا رفع عنهم القحوط وغيره حسب سنته تعالى: (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ)[الأعراف:٩٥]، ونالوا الرفاهية والنعمة - يقولون: ألاترون أن هذه الأحوال هي التي توافق سعادتنا وحسن حظوظنا. ثم إن نزل عليهم ما يسوءهم خلال ذلك قالوا: إنما ذلك – والعياذ بالله- من شؤم موسى وأصحابه، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: (اَلَآ اِنَّمَـا طَـآئِرُهُمْ عِنْـدَاللهِ)،أي تنسبون نحسكم وشؤمكم إلى عباد الله الصالحين؟! فالله تعالى أعلم بسبب نحسكم وشؤمكم هذا في الواقع، وهو ظلمكم وعدوانكم وبغيكم، وبناءً على ذلك ينالكم من الله تعالى بعض نحسكم وشؤمكم كعقوبة موقتة وزاجر من الزواجر، وأما أصل شؤمكم ونحسكم أي عقوبته الكاملة فلاتزال عند الله تعالى، لابد أن تنزل عليكم في الدنيا أو في الآخرة في حينها، مما لايعلمه معظم الناس.

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

وكانوا يرون معجزات موسى عليه السلام وآياته، فيقولون: مهما تأتنا به من أعمال سحرك العجيبة، ومهما أتيتنا به من الآيات والمعجزات في زعمك، فما نحن لك بمؤمنين. فلما قالوا هذا القول الفصل، وأغلقوا على أنفسهم كل باب يؤدي إلى قبول الحق، أنزل الله تعالى عليهم بعض الأنواع من البلايا واحدةً تلو أخرى، وتفصيله في الآية اللاحقة.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

أي طوفان السيل والمطر أو طوفان الموت من الطاعون، على اختلاف الأقوال.

فائدة: القمل هي القردان، كما اختاره المترجم رحمه الله، أو دويبة تقع في الثوب أو السوس الذي يقع في الحبوب وغيرها، فتفسد، أي وقعت القملة في الجسد والثياب، وأكلت السوس الحبوب.

فائدة: أي أُرسلت هذه الآيات كلها في فترات قريبة، ولكنهم كانوا ولغوا في الكبر والجرائم والآثار فلم يرعووا، ولم يستجيبوا بصورة أو أخرى. وعن سعيد بن جبير قال: لم يستجب فرعون لطلب موسى عليه السلام - وهو إرسال بني إسرائيل-،

فأرسل الله تعالى عليه طوفانا من المطر، فخافوا على مزارعهم، ففزعوا إلى موسى عليه السلام وقالوا له: اطلب ربك أن يرفع عنا هذا الطوفان، ونرسل معك إذًا بني إسرائيل.

فدعا موسى عليه السلام الله تعالى فأمسك المطر، ولم يضرهم؛ بل كثرت الزروع، فغفل فرعون عن وعده ولم يفِ، فأرسل الله تعالى على زروعهم الجراد، فرأوا ذلك ففزعوا ولم يدروا كيف أصيبوا بهذه النكبة الجديدة، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه يكشف عنهم هذا العذاب، ووعدوا وعدًا مؤكدًا بأنهم يرسلون بني إسرائيل إن رفع عنهم العذاب، فلما كشف عنهم العذاب، اطمأنوا ونسوا ما وعدوه.

ولما حملوا الحبوب إلى بيوتهم وقع فيه السوس بأمر الله تعالى، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله تعالى وأعطوا المواثيق المؤكدة، فلما زال عنهم ذلك عادوا إلى حالتهم الأولى من البغي ونقض العهد، فكدَّر الله تعالى عليهم طعامهم وشرابهم، وكثرت الضفادع حتى وجدوها في أطعمتهم وأوانيهم كلها.

وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثب الضفدع إلى فيه، وضاق عليهم العيش من جراء هذه الضفادع، وكانوا إذا تناولوا الماء ليشربوه عاد دما في الأواني أو قبل وصوله إلى أفواههم، فكانوا لايقدرون على الطعام والشراب ثم يتبجحون بما هم عليه ويستكبرون؟!

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾

أي ادع الله تعالى بما أرشدك إليه من الوجه المؤثر، أو معنى قوله: (بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) ادع الله بصفتك نبيًّا، فإن بينه وبين الله تعالى نوعًا من العهد بأن الله تعالى يكرم النبي ويعينه. والنبي لايقصر في تبليغ أحكامه، وقد يراد بقوله: (بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) ما أخذه الله تعالى على الأمم بوساطة من الأنبياء عليهم السلام، بأنه يرفع عنهم العذاب إذا أمسكوا عن الكفر والتكذيب. والله أعلم.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

المراد بـ(أجل) هذا إما الموت أو مدة الغرق، أو المراد به مدة نزول بلاء عقب بلاء.

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

الرجز هو الطاعون على رأي بعض المفسرين، كما أطلقه بعض الأحاديث النبوية على الطاعون، وأما أكثر المفسرين فيعدون هذه الآيات تفسيرًا وبيانًا

للآيـات الـسابقة، ففـي «موضـح القـرآن»: «نزلـت عليهم هـذه البلايـا واحـدةً تلـو أخـرى بعـد أسـبوع واحـد». فكـان موسـى عليـه السلام يقـول لفرعـون: سيرسل الله تعالى عليك كذا وكذا من البلية، فتنزل عليهم فيضطرون، ويتملقون موسى عليه السلام، فيرتفع عنهم البلاء بدعائه، ثم يعودون إلى الكفر، حتى وقع عليهم في منتصف الليل، فمات أول أبنائهم جميعًـا، وانـشغلوا في الحـزن عـلى موتـاهم، إذ خـرج موسـى عليـه السلام بقومـه مـن المدينـة، ثـم تـبعهم فرعـون بعـد أيـام، وأدركهـم عنـد بحـر القلـزم، فعـبر موسى ومن معه سالمين، وغرق فرعون وجنده فيه.

وَأَوْرَثْنَـا ٱلْقَـوْمَ ٱلَّذِيـنَ كَانُـواْ يُسْتَـضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّـتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُـهُۥ وَمَـا كَانُـواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أي أورثنا بني إسرائيل.

فائـدة: ذهـب معظـم المفسرين إلى أن الأرض هـي أرض الـشام، التـي أودعهـا الله تعـالى كثيرًا مـن البركـات الظـاهرة والباطنـة. فالظـاهرة هـي خـضرتها ونـضارتها، ورونقهـا وبهاؤهـا، وخـصبها، والمـراد بالباطنة كونها مدفن كثير من الأنبياء عليهم السلام، وجعـل بنـو إسرائيـل يتيهـون في الـصحراء مـدة مـن الزمان بعد أن خرجوا من مصر، كما سبق ذكره. ثم جاهـدوا العمالقـة مـع يوشـع، وورثـوا الـشام مـوطن آبـائهم. وحمـل بعـض المفـسرين هـذه الأرض عـلى أرض مصر، أي أورثنا بني إسرائيل أموال مصر بعد أن أغرقنا آل فرعون، ليتمتعوا بها في حرية تامة، كما قال تعالى: (كَـمْ تَرَكُـواْ مِـن جَنَّـٰتٍ وَعُيُـونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَـرِينَ ﴿٢٨﴾) [٤٤-الدخان: ٢٥-٢٨]، (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ) [٢٨- القصص:٥-٦].

وعـلى هـذا التقـدير بركـات مـصر الظـاهرة غـير خافيـة، وأمـا الباطنـة فـإن يوسـف عليـه الـسلام قـد وري جثمانه فيها، وانتقل إليها يعقوب عليه السلام، ثـم قـضى فيهـا موسـى عليـه الـسلام مـدةً طويلـةً منـذ صـباه إلى كـبره، وجمـع الإمـام البغـوي هنـا بـين قـولي المفسرين، فقـال: المـراد بهـا هنـا الـشام ومـصر جميعًـا. والله أعلم.

فائـدة: صبر بنو إسرائيل على الويلات الشاقة التي صبها عليهم آل فرعون، واستعانوا بالله تعالى حـسب توجيهـات موسـى عليـه الـسلام، ووقفـوا بجانب رسول الله، فحقق الله تعالى ما وعده لهم من

الوعد الحق (عَسٰى رَبُّكُمْ اَنْ يُّهْلِكَ عَدُوَّكُمْ) [الأعراف:١٢٩]، وهلك ما مكره فرعون وقومه لاستكبارهم ونخوتهم، وانهدمت مبانيهم العالية، صدق: (اِنَّ الْمُلُوْكَ اِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً اَفْسَدُوْهَا وَجَعَلُوْٓا اَعِزَّةَ اَهْلِهَآ اَذِلَّةً)[النمل:٣٤].

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

قيل: هم قبيلة لخم، وقيل: هم العمالقة في كنعان. قالوا: كان لهم أصنام على صورة البقرة. والله أعلم.

فائدة: أي أنتم جهلة كل الجهل بعظمة الله تعالى وعلو شأنه، وتنزيهه وتقديسه، وحقًّا كانت بنو إسرائيل تميل من حين لآخر إلى مثل هذه الأفعال والتقاليد الشركية.

وطلبُهم هذا الجاهلُ والوقحُ أيضًا يعكس جوَّ مصر، ومصاحبتَهم فيها لعبادة الأصنام. و يقول الشاه رحمه الله: إن الجاهل لايطمأن قلبه بعبادة إله مجرد من الصورة، ما لم يتمثل له، فلما رأوا أن أمة من الأمم تعبد البقرة، سولت لهم نفوسهم صوغ عجل من الذهب، وعبادته.

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

أي ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام مكتوب عليه الفناء بيدي وأيدي أهل الحق، وما يمكرونه محض باطل ولغو لايستند إلى دليل.

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

أي ألـيس شكر الله تعالى على هذه النعم الجليلة ومعرفة الجميل إلا أن تعبدوا غير الله تعالى، وتخرجوا عليه، ثم ما أشنع أن يذهب خلقٌ – فضَّله الله تعالى على العالمين- يسجد للأصنام التي نحتها بيده؟ هل يعبد المفضولَ من هو أفضل منه؟!

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يُرجع لتفسيره إلى ما بعد الربع الأول من الجزء الأول من القرآن الكريم، فقد سبق هذا المعنى فيه، أي أتَدَعون الله تعالى العظيم الذي أنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة إلى السجود للأخشاب والأحجار؟

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

تخلصت بنو إسرائيل من أنواع البلايا والمشقات، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يأتيهم

بـشريعة سـماوية، يرتـاحون إلى العمـل بهـا، فتقـدم موسى عليـه السلام بطلبهم إلى الله تعـالى، فوعـده الله تعـالى بأنـه إذا صـام واعتكـف ثلاثـين يومًـا عـلى الأقل، و أربعين يومًا على الأكثر في جبل الطور فإنه سبحانه ينزل عليه التوراة. ولعل الغرض في ضرب أجلين يرجع إلى أنه إن لم يصدر منه تقصير في أداء وظائف العبودية وآداب التقرب إلى الله تعالى خلال الرياضة فإن المدة الأقل- وهي ثلاثون يومًا- فيها غنيـة، وإلا كـان عليـه أن يـتم أبعـد الأجلـين وهـي أربعون ليلةً، أو كان ثلاثون يومًا مدة لازمة ومحتومة مـن أول الأمـر، وكـان استكمال الأربعـين ليلـة عـلى سبيل الاختيار و الاستحباب، تكملةً لأصل المدة وتتميمها، كما قال شعيب عليه السلام حين زوج موسى عليه السلام ابنته: (عَلٰٓى اَنْ تَـاْجُرَنِىْ ثَمٰنِىَ حِجَجٍ فَاِنْ اَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۚ وَمَآ اُرِيْدُ اَنْ اَشُقَّ عَلَيْكَ) [القصص:٢٧].

وقـال بعـض المـؤلفين المعـاصرين: كانـت الأربعـون ليلـة أصـل الموعـد، كـما في قولـه تعـالى في سورة البقرة، وهنا في قوله: (فَـتَمَّ مِيْقَـاتُ رَبِّـه) إشارة إلى ذلك. وبين هذه الأربعين ليلة بأن قال: وعدناه ثلاثين ليلة، يتمها عشرة أيام أخرى، وذلك ليتبـين أن الموعـود بـه شـهر كامـل وهـو شـهر ذي القعدة، وزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة، فكان ذلك اعتبارًا من غرة ذي القعدة إلى عشر ليال من ذي الحجة تكملةً للأربعين، وهذا هو المأثور عن معظم السلف. والله أعلم. وفي «موضح القرآن»: وعد الله تعالى موسى عليه السلام بأن يخلو ثلاثين ليلة في الجبل، فيعطي قومَه التوراة، فتسوك موسى عليه السلام خلال هذه المدة يومًا من الأيام، وكانت رائحة فمه تعجب الملائكةَ، فذهبت بالسواك، فزاد عليها عشر ليالٍ تكملةً للمدة.

فائـــدة: أي قُـم بـواجبي في غيـابي عـنهم، كـأن صلاحيات الحكومة والسلطة - التي كانت مختصة بموسى عليه السلام- قد أسندت إلى هارون عليه السلام، وكـان قـد جرَّب مـا عليـه بنـو إسرائيـل مـن الطبيعـة المتقلبـة والتبـاطؤ الاعتقـادي، فنبـه هـارونَ عليـه الـسلام بكـل تـصريح وتأكيـد عـلى أن يـصلح ويتبـع مذهبـه وطريقتـه إن أفسد هـؤلاء مـن ورائـه. ولايتبع سبيل المفسدين. وشاء الله تعالى أن يوصي موسى عليـه السلام أخـاه بـذلك ثـم ينطلـق منهم، وفي جانب آخر بدأت بنو إسرائيل عبادة العجل، وأعلن هارون عليه السلام – على رغم كَتبة التوراة المعاصرة - براءته ونفوره من ضلالهم بقوله: (يٰقَوْمِ اِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهٖ وَاِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُوْنِىْ وَاَطِيْعُوْٓا اَمْرِىْ) [طه:٩٠]، ولم يدخر جهدًا في إصلاح الحال حسب وصية موسى عليه السلام.

شبهات و ردود

(الحلقة ١)

بقلم : **المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ
المعروف بـ«حكيم الأمة» المتوفى ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م

تعريب : محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

يعتبر العلامة أشرف علي التهانوي -رحمه الله- (١٢٨٠-١٣٦٢هـ/١٨٦٣-١٩٤٣م) أكثر العلماء تأليفًا، فلايكاد يخلو جانب من العلوم والخدمات الدينية إلا وقد ترك بصمات واضحة المعالم فيه. وهو في طليعة علماء عصره في كشف الشبهات العالقة بأذهان الجيل الحاضر، والشباب المثقف الثقافة الغربية المعاصرة البعيدة عن دين الله تعالى وهدي رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفيما يلي بضع عشرة شبهة عمل التهانوي رحمه الله على كشفها وردها، وبيان ما فيها من العوار والبوار. والرسالة في اللغة الأردية، فارتأينا أن ننقلها إلى العربية تعميما لنفعها مخافة أن تبقى حبيسًا على الناطقين باللغة الأردية، فلا يستفيد منها إخواننا العرب.

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلاة، اعلم أنه كتب رجل إلى بعض قرابته وهو يعظه في اتباع الشريعة وإصلاح الأعمال والأحوال، ونشأت بعض الشبهات والأوهام في نفس قريبه من جراء غلبة الأفكار الجديدة، التي أطلعوا عليها الرجلَ، فرد عليه الرجل. وهذه الشبهات كثيرا ما يقع الناس فريسة لها، فرأينا من المصلحة أن نجمع هذه الشبهات والردود عليها في مكان واحد تعميمًا للفائدة، وسميناه «إصلاح الخيال». وقام أحد الصالحين الأكفاء بعرض رسالة تشتمل على المواعظ على بعض وجوه القوم ممن يجرون وراء الخيالات الجديدة، ولم يتم إرسالها إليه، وقد احتفظ بعض الناس بصورة منها، وكانت محتوياتها مما يلائم هذه المجموعة، فألحقنا محتوياتها بآخرها. فقط.

والسلام

العبد الضعيف: محمد أشرف علي عفي عنه.

بيان الشبهات:

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان الشبهة الأولى:

أرى أن المنظور الذي ينظر به علماء الدين في

الهند إلى الشريعة واتباع الشريعة ليس من شروط الإسلام، فقد سلطت صروف الدهر ومشيئة الله تعالى الإنجليز على البلاد. والناظر في تاريخ أول دولة قامت للمسلمين يتبين له أن ما كان عليه المسلمون قبل البعثة، كانت الأمم الأخرى أسوأ حالا منهم: فكانوا في إنجلترا يكلفون المتهم – للتأكد من جريمته في تحقيقات القضية- إدخال اليد في الماء الحار، ويرونه بريئًا من الاتهام إذا لم تحترق يده. وكانوا يعاقبون المرء بإحراقه حيًّا. وعلى كل، يتجلى عند المقارنة أن العرب لم يكونوا أمة متخلفة حسب سير الزمان ومجراه؛ بل قام الإسلام بإصلاح أحوالهم وتعديل أخلاقهم وتعليمهم التوحيد في مثل هذه الأحوال المأساوية التي كانت عليها الأمم المماثلة في تلك الحقبة من الزمان. فبرزت على الساحة أمة جديدة، لم تخرج بسيفها إلى منطقة من المناطق إلا كان فتح البلاد حليفها، وسائرًا في ركبهم حتى فتحـــوا قارة آسيا، ومعظم أصقاع أوربا، ودل القرآن والسنة النبوية على التأييد من الله تعالى بالنصر وفتح البلاد. فلايسعنا رفض أن الله تعالى ينصر كل أمة تتصف بالكفاءة واتباع أحكام الله تعالى.

ففتح المسلمون وأسسوا دولة كبرى يعز مثيلها في التاريخ، ثم تسرب إليهم النزاع والصراع الداخلي بعد الخلفاء الراشدين، وحدث على أيدي المسلمين قصة كربلاء التي يندى لها الجبين، و يعض المسلمون عليها بنان الندم إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. وظهرت معالم سقوط الدولة. ولم تكن يومئذ أمة أخرى حاكمة راقية مثقفة على وجه الأرض، فتمتع المسلمون بالأمن والسلام في المنطقة التي قام فيها حكمهم. وتوقفت فتوحات البلاد، وتقررت حدود الدولة، و استمرت آثار الرواية في الظهور مع مرور الأيام، أي لم يتخذ المسلمون تدابير تعيين على بسط الأمن، وتقي هجمات الأمم الأخرى. والظلم والاعتداء الذي كان قد يمارسه ملاك الأرض على رعيتهم أمثلته لازالت قائمة إلى ما قبل أيام الغدر- الخروج على الإنجليز-.

وقطع الأوربيون أشواط التقدم والرقي إلى القرن العاشر، حتى اكتشفوا مادة الحرب - أي البارود وغيره-، وكان الشؤم على الملوك المسلمين. لنجعل العهد الذي أشرت إليه آنفًا مبدأ العهد، ونقارن أحوال المسلمين مع الأمم الأخرى، يتبين لنا أن المسلمين كانوا في فاتحة العهد على دماثة الخلق والجرأة والعزيمة. ولم يكن في الأمم الأخرى إلا جبناء، مؤثرين الدعة، قليلي الهمة. فبقي المسلمون حيث كانوا؛ بل تعرضوا فيما بعد لسقوط أكثر، واضمحلال أشد، وواصلت الأمم الأخرى قطع أشواط التقدم والرقي، حتى أحرجوا روما، وعزَّ بقاء دولة عبد الحميد الثاني إذا لم يصطبغ

بصبغة سلاطين أوربا حينئذ. ولو أن سلطان روما طبق إسلام الهند عنده، لغني الناس عن العناية به؛ فإنه كان قد استغنى بذلك في زوال حكمه ودولته، ولكنه أدخل إلى الجيش – حسب متطلبات العصر الراهن – من الأدوات الحربية ما لايبيحه علماء الهند أبدًا. وأصدقكم أن السلطان لو عهد بأن يمتثل أوامر علماء الهند، ثم توجه بعض علمائها إليه لإصلاح أسلوب مدنيته، فيأخذ السلطان بها حسب وعده وعهده، فلا أملك إلا أن أقول: كفى ذلك في زوال حكمه.

فإن قيل: هَبْ أن الحكم زال، فإن اتباع الشريعة هو قوام الأمر وملاكه، فهلا نعمل على إصلاح الآخرة، استمرت الحكومة أو زالت، فهل ينفع مثل هذا العيش المقرون بزعزعة الوضع الاقتصادي واضطراب القلب؟ وثانيا: ينتج ذلك عن أن الإسلام لايعلمنا الحكم والسلطة؛ بل الذل والهوان. والأمر على خلاف ذلك. ومن العبث ضرب أمثلة المسلمين السابقين اليوم، فإن الزمن اختلف عما كان عليه. فلو أن سلطان روما اتبع ما كان عليه سيدنا عمر رضي الله عنه، أي خرج بنفسه لرعي إبل بيت المال، فقُل لي – وأنت ذكي– هل يسعه إدارة دفة البلاد أم لا؟ كلا.. فإن ذلك كان أليق بذلك العصر أن يخرج الخليفة بنفسه ليلا يتفقد رعيته، ويرسل السرقة للعمل في الأجرة.

بيان الشبهة الثانية:

اليوم تقوم الدولة على أساس من العلم، لا بقوة السيف، فهذا البطل الشجاع يخرج إلى المعركة وبيده سيف، ثم يبردونه من بُعد ألف قدم. والآلة التي يتم تبريده بها يملأ برصاصات بعيدة المدى بقوة العلم، فيطلق عشرات الطلقات في دقيقة واحدة، فأنى تطيش عن هدفها.

بيان الشبهة الثالثة:

يا للأسف، لم يقدر المسلمون ما خلق الله تعالى لهم من النعم، ولم يستخدموا الماء في وجهه اللائق، وإنما كان همهم شربه والتوضؤ به، والاغتسال والتطهر. وقد عاد الماء نفسه اليوم ينشأ عنه البخار، فيقوم الرجل الواحد بما يعجز عنه ألف رجل.

بيان الشبهة الرابعة:

ما الذي يعارض منه الشريعة الإسلامية حتى لم يقبل إليه المسلمون قط؟ أو لا يقبلون إليه اليوم حتى بعد أن رأوا غيرهم يقبلون إليه؟ وإنما ضربت لك هذا المثال البسيط. وقِس عليه كل ما في الدنيا، فإنه لو شاء أحد أن يكتب فيه سجلا لم يعجز عنه. وهل تجد شيئًا من ذلك لم يستخدمه المسلمون؟ ولم يقصروا استعماله فيما يرجع إلى أجسامهم الفانية؟ ولم يتأملوا فيه أصلا فينفعوا بني جنسهم. ومن المسلَّمِ أن الناس يحاسبون يوم القيامة على أبسط

الأشياء، وأكاد أعتقد بأن الذي استخدم نعم الله تعالى هذا الاستخدام غير المنسجم فإنه لابد أن يسأل عنها يوم القيامة.

بيان الشبهة الخامسة:

لاندري اليوم ما الذي يعتبرونه من شروط الإسلام؟

بيان الشبهة السادسة:

قد ابتعد المسلمون عما ينادَون إليه بعدًا لايسمعون معه هذا النداء، وقد شاهدت ذلك بأم عيني حين كنت خارج الدولة.

بيان الشبهة السابعة:

ما يعلِّمه علماؤنا في الدين والقيادات الدينية لانرى من ورائه إلا الذل والهوان فيما نحن من الزمان، وإذا كان المسلمون يُرزقون الجنة والحور في الآخرة فليرجوا ذلك من الله تعالى، وهذا لايستلزم أن العيش في الدنيا عيشة النكبة والهزيمة يستوجب إصلاح العاقبة. وإذا كان كذلك في الواقع فهلا يصرحون بذلك، وفيمَ يقولون من غير مبرر: لابد من كسب الدنيا حسب الضرورة.

بيان الشبهة الثامنة:

نحن نقول: لانكسب الدنيا حتى بقدر الضرورة والحاجة على الوجه يرشدنا إليه علماء الدين اليوم. هَبْ أنك علَّمت أحدًا الكتب، فأصبح عالمًا، ثم إنك تفكر في أمره: كيف يفعل بعد ذلك؟ وكانوا يقولون قديما: نعلمه الحرفة والصناعة، فما هي الحرفة هذه؟ ليست إلا النجارة والحدادة. وهنا أقول بكل أدب واحترام: ما الفرق شرعًا بين تعليم النجارة والحدادة، وبين تعليمه صناعة السلك الكهربائي، وقيادة القطار أو صناعة البخار؟ فهؤلاء العلماء بدورهم لايعرفون النجارة والحدادة، فأنى يعلمونها غيرهم؟وأليس يستأجرون حدادا لتعليم الحدادة؟ ويستأجرون النجار لتعليم النجارة، فهلا يستأجرون مهرة الفنون والحرف الأخرى؟ والحق أن المسلمين قد تسرب إليهم من قصر النظر في العاقبة، وقلة الهمم ما لاتسمو أنظارهم معه.

بيان الشبهة التاسعة:

وبلغ بي الأمر اليوم أني أنتقد المدارس العربية وأعترض عليها، ولا أراها – بصفتها الحاضرة- عمل خير، ورغم ذلك أنا –ولله الحمد- مسلم، وأرجو من ربي أن يحييني مسلمًا.

ثم اعلم ما الاعتراضات التي أوجهها إلى المدارس العربية؟ تؤكد لنا الأحكام القرآنية أن عليك حقوقًا، هي للقرابة أولا ثم الجيران، ثم أهل المدينة، ثم أهل البلد، ثم ابن السبيل، ثم انظر في هذه المدارس من ينتفع بها؟ وليس من وظيفتنا أن نعلِّم من جاءنا؛ بل الواجب علينا اتباع الطريق الذي ينفع إخواننا.

زارني بعض الناس وكان على حب عظيم

للعلماء، كثير الحضور إليهم، والخدمة لهم، وأرى من خلال موقفه أنه أدخل زيارة العلماء في أعماله الروتينية، فقلت له: كم فرضًا في الوضوء وسنة؟ ورغم أنه اعترف بأنه يصلي منذ سبع وعشرين سنة، ولكن لم يحرِ جوابًا. فقلت له: لابد أنك تزور أحد العلماء مرة في الشهر؟ فقال: سيدي، أزورهم كل يوم. فقلت له: هل علَّمك أحد منهم فرائض الوضوء وسننه؟ وهل علمك كيف تفعل إذا كنت على سفر، ولم تجد إلا ربع لتر من الماء؟ فعلَّمتُه ذلك، بالإضافة إلى أحكام شرعية أخرى. فاعترف شاكرًا بأنه لم ينتفع بمصاحبة العلماء ما انتفع بكلماتي المعدودة هذه. لم أقصد بهذه القصة إطراء نفسي، وإنما أردت الكشف عن أحوال العلماء، وأنها في حاجة إلى الإصلاح والتقويم، فإن صلحوا صلحنا تلقائيا.

بيان الشبهة العاشرة:

لم يكونوا يوجهون الاعتراض إلى المنهج التعليمي من عشر سنوات، وكم مضى من العلماء الكبار، هل سمعت أحدا منهم يقول: إن المنهج التعليمي العربي منقوص ومبتور؟ وأنه مضيعة للأوقات؟ أو أنه يجب تعليم النجارة والحدادة في المدارس العربية؟ وإنما يفكر فيه هؤلاء العلماء الذين نبتوا حديثًا. سيدي، لو وُجدَ أحد من معاصري العلماء المذكورين لطعن في اعتراضات علماء الدين اليوم على المنهج الديني طعنًا مماثلا لطعن علماء اليوم على من يلبس المعطف والبنطال. ألا ترى كم شهد العلماء من الانقلاب والثورة؟!

بيان الشبهة الحادية عشرة:

إنهم يفتون اليوم بإباحة ما كانوا يحرمونه مطلقًا قبل عشر سنوات، فما السبب وراء ذلك؟ فإنهم يتحولون في آرائهم مع تحولات الأوضاع في الزمان.

بيان الشبهة الثانية عشرة:

أما علماؤنا فقد لازموا العزلة والخلوة عن الناس، فلايطلعون على الأوضاع على وجه سريع، فلو أنهم طوفوا في الخارج، وشاهدوا ما عليه أبناء المسلمين، ثم ينظروا: إلى أين وصل هؤلاء؟ فربما يتوصلون إلى وجه للإصلاح، ولكنهم لايتوصلون إلا بعد مدة طويلة حيث لاينفع العلاج والدواء.

بيان الشبهة الثالثة عشرة:

يقوم تعليم العلوم الدينية على ثلاثة أمور: الاعتقادات، والعبادات، والمعاملات؛ بل تقولون: هذه هي شروط الإسلام. ولعل التصوف ضم إليها أمرين. فالإسلام يقينا عبارة عن هذه الأمور الثلاثة. وليس هناك نصاب للاعتقادات، وإنما قوامها العباداتُ والمعاملات. أما المعاملات فمعظم أجزائها يستلزم السلطة والحكومة. فالمعاملات تسير على وفق قانون من له الحكم والسلطة. فهَبْ

أن أحدًا زنى اليوم لم يُرجم، ولو سرق لم يقطع يده. وهَب أن أحدا ارتكب الزنا، فكيف يفعل المدعي؟ هل يقدم طلبًا في ورقة لايتجاوز ثمنها ثمانية دوانق؟ ما الدليل عليه من الشريعة؟ ثم يقوم بتسجيل بيانه حالفا عليه، وكيف هذا الحلف؟ هو أن يقول: إن الشهادة التي يقدمها إلى المحكمة صادقة مئة في المئة. وهي صادقة غير كاذبة. اللّٰهم كن لي ناصرًا وحليفًا. ثم عُرِضَت الشهادة، وأرسلت المزنية إلى الطبيب للفحص. فإن ثبت زناه على كل الوجوه، فإنه يعاقَب بالسجن أربعة أشهر، والغرامة المالية قدرها مئتا روبية. ومئة وخمسون روبية منها تقدَّم إلى المدعي تعويضًا له.

ألا ترى هل وافق هذا الأمر في مرحلة من مراحله عن آخرها الشريعةَ؟ وأنى جاز لهؤلاء أخذ المئة والخمسين؟ و رغم ذلك يحدث ذلك كل يوم، وربما لم يطلع عليه العلماء. وهذا مثال بسيط جدا، وهناك معاملات أفظع من ذلك، فهؤلاء الطلاب الذين نلقنهم في الكتب أن جريمة كذا عقوبتها كذا، وجريمة كذا عقابها كذا، متى تنفعهم هذه الكتب في حين تتم تصفية المعاملات على أساس من القوانين الحاضرة. فمن حكم في قضية الزنا بهذا الحكم، صدق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٤]، ولكن هل انتقل ذهن أحد إلى أن الذي رفع الأمر كان معينا على ذلك؟ فإنه كان على علمٍ بأنه لايحكم الحاكم بما يوافق الشريعة، فلابد أن نقول: إنه ساعد على ذلك. فما العلاج والدواء؟ علاجه أن تقعد في بيتك وتلازم الصمت. فإن صح هذا فانظر في أحوال المسلمين كيف يفعلون؟ فإن الله تعالى إذا توفاهم من هذه الدنيا كانوا نجوا. فالمعاملات الكبرى ذهبت مع الحكومة.

وأما المعاملات الصغرى والبسيطة اليومية فأحكامها مدونة في الكتب الأردية، وهي من ضمن المقررات الدراسية للأطفال، أو يجب أن نضمنها ذلك. وباب العبادات وجيزة للغاية، وأما أحكام الصوم فقد ساقها القرآن الكريم في ركوع واحد، وكذلك يتضمن كتاب واحد في الأردية أحكام الصلاة. وأما الحج والزكاة فلايحتاج إليها إلا بعد أن يبلغ، وأحكامهما وجيزة. ولكنهم طولوا هذا المختصر الوجيز كثيرًا حتى نفقت عشر سنوات من عمر الأولاد، فإذا تخرجوا بدؤوا يفكرون فيمَ العمل؟

بيان الشبهة الرابعة عشرة:

فإن بقي من العمر بقية للدراسة، وتطلبت الحمية سارع إلى تعلم الطب، فهيأ سببًا من أسباب العيش، وأما إن مضى عمره، كما هو الغالب العام، فيأخذ طريقه مباشرة إلى المسجد، ثم ما يقوم به هؤلاء أنتم أكثر تجربة مني لذلك. وليت شعري ما الذي

كنت أود تسجيله ثم ما الذي سجلته؟

بيان الشبهة الخامسة عشرة:

أود أن أصف حالتي، فأنا أرتدي المعطف والبنطال أو قل: أرتدي اللبسة الإنجليزية كاملة إلا القلنسوة، فإنها تركية؛ ومع اختلاف القلنسوة هذه يعود لباسنا لبسة قومية. ومن أبى ذلك سيضطر إلى ارتدائها بعد عشرة أعوام، وأقول ذلك بكل ثقة، لا دغدغة فيها. فقالوا لي: هذه لبسة غير شرعية. فيجب تركها. فهلا أخبروني: ما الذي ألبسه؟ فالوظيفة التي يجب أن أقوم بها، والتي كتبها الله تعالى لي، وأنا مضطر إلى القيام بها قضاء وقدرًا، هذه الوظيفة عمل يوجب علي أن أقضي أربع ساعات على ظهر الخيل وثلاث ساعات على متن الدراجة- أو على ظهر الخيل إن لم تتوفر الدراجة- في جولات داخل البلد وضواحيه. ويقدَّر أني أقطع كل يوم مسافة عشرين ميلا، والسروال الذي ألبسه خلال الركوب من ثوب لايتمزق باليد، إلا أنه قد خَلُقَ خلقًا يبعثني أنا على العجب والحيرة. وأما السروال الشرعي المتخذ من البفتة ذو المدخل الواسع، فلاينفع يومًا واحدًا إلا بشق النفس. ولن تؤمن بهذا إلا إذا رأيتني رجلا صادقًا في كلامي، ويعز تصديقه من غير تجربة.

والفرق بين البنطال والسروال عند الركوب يرجع إلى التجربة، ويصعب شرحه وبيانه. فإن أشاروا إلى السلف، فأنا أُذكِّرهم بالمنهج التعليمي، فلن يتغير لباسي بهذه البساطة. ولاسبيل إلى ذلك إلا أن يريني رجل منهم القيامَ بوظيفة مثلها، وعلى جسده السروال واللباس الفضفاض، ويلبس الخمار، فإن تحقق له ذلك، فأحلف على أني سأستبدل لباسي على الفور.

وأما العبادات فأصوم، وأؤدي الزكاة، وأحج البيت، والله تعالى هو الذي يوفق لإكمال ذلك. وأما الصلاة فلا أؤديها على وقتها بلهَ المواظبة على الجماعة. وأما صلاة الصبح فأقضيها منذ قديم الزمان، وأنا على علمٍ بأني مسيء. وأحاول إصلاح الأمر.

بيان الشبهة السادسة عشرة:

وهذا نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أكد على الصلاة على وقتها، ولكن الإمام الشافعي رحمه الله أفتى في بعض الأحوال بالجمع بين الصلاتين. وذكر الإمام أبو داود الجمع بين الصلاتين بمجرد أن يكون على الناس حرج.

ولايفوتني أخيرًا أن أقول: بدأت كتابة هذه الرقعة في الساعة الثالثة ليلا، وأنهيتها في ثلاث ساعات، ولم أتعمد تسجيل كلمة منها من عند نفسي، وإنما انطلق القلم بها بصورة عفوية. وأقرأها فأرى إرسالها إليكم من الوقاحة. وإنما حملني على إرسالها تفكير واحد، وهو أن ذكر المرض للطبيب

لـيس مـن الوقاحـة. مـثلا لايجـوز كـشف العـورات لأحـدٍ إطلاقًـا، وأمـا إذا أصـابه دمـل في مثـل هـذه المواضع، لم يجد حرجًا من أن يكشف عنها للطبيب. فإن تردد في الكشف عنها للطبيب تردده في الكشف عنها لعامة الناس، فإنه يؤدي ذلك إلى فساد الجرح مـن داخلـه ويتحـول إلى قرحـة تنـزف، ثـم يلقـى صاحبها حتفه.

وإنـما عرضـت عقيـدتي وأفكـاري – كائنـة مـا كانت – لعلها تلقى منكم الإصلاح إن أمكن، وإن كـان فيما سـجلت أمـر نـافع، فأنـشدكم الله تعـالى أن تُولُوه أهميةً. وبلغت الأوضاع مرحلة حرجة للغاية، فهؤلاء المسلمون مصيرهم مع مرور الأيام الخراب والدمار، دون أن يعنى بأمرهم أحد. وقد أورث الله تعـالى أعمالكـم تـأثيرًا، فـإن كنـت صـادقا فيما قلـت فأرعوا لها سمعكم، وأصلحوا إن كنت على خطأ. فأنا منكم. فخلصوني من فضائح يوم القيامة، وإن رأيتم أن نجاتي في التخلي عن الوظيفة، فأرشدوني بكل صراحة، وقد كشفت لكم عن أحوالي بنصها وفصها.

بيان الشبهة السابعة عشرة:

وحيث تـصديت لكـشف عـورتي فـأقول لكـم أمرا آخر– ومالي أكنُّ الشبهة في قلبي– وهو أن الله تعـالى هـل أرسـل رسـوله محمـدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لإصـلاح العـرب خاصـة أو لإصـلاح العـالم كلـه، وأرى أنـه أرسـله لإصـلاح العـرب خاصـة؛ لأنهـم كـانوا يومئذ أفصح لسانا وأبلغ بيانًا. ونزل عليهم القرآن الكريم في اللغة العربية، فأيقنوا أنه ليس من كـلام البـشر. ولم يجـدوا بـدًّا مـن الإيـمان بـه، وعـاش النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حياته كلها بين ظهرانيهم، فلما أكمـل الرسـالة توفـاه الله تعـالى. ولم تـؤمن الأمـم الأخـرى بقرآنـه عـلى الأسـاس الـذي آمـن عليـه العــرب. وإنــما فــتحهم العــرب بقــوة الــسيف، وأكرهــوهم عــلى الإيــمان. ولم يطلبــوا مــن النبــي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المعجـزات، ولا آمنـوا بـالقرآن إيـمانَ العرب.

والفتوحـات عـلى قـسمين: الأول: نـوع مـن النـاس عجـزوا عـن محـاربتهم ولم يقـووا عليهـا، فأسـلموا. ونـوع آخـر مـن النـاس طلبـوا الأمـن، و رضـوا بـدفع الجزيـة مـستمرين عـلى دينهم. ولم تـتم عليهم دعـوة الإسـلام. وأعظـم مـا يـستحق التأمـل والنظر أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يزُر العالم كله، و لم يطلع كثير من الناس حتى يومئذ على أنه رسول. ودخل الإسلام إلى الهند بعد مـدة طويلـة. فكيـف تحققـت هدايــة مـن فيهـا مـن الهنـود؟ وقِـس عليـه أمريكا وإفريقيا، ومعظم أجزاء أوربا وآسيا، فإن الله تعـالى خلقهـم في فرقــة وجماعــة خاصـة ومـاتوا فيهم. فقط.

* * *

من جبل ثور إلى قرية قباء
الهجرة النبوية المباركة .. رحلة الفصل بين الحق والباطل

بقلم: د. عدنان عبد البديع اليافي

التأريخ بالهجرة

تذكر بعض المصادر أن الهجرة كانت بعد البعثة بحوالي عشر سنين، ومنذ صدر أمر الخليفة عمر بن الخطاب بذلك منذ أكثر من حوالي أربعة عشر قرنًا والمسلمون يؤرخون سنيهم بذكرى الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، هذه الهجرة التي لم تكن الأولى في تاريخ الإسلام، حيث سبقتها هجرات بعض الصحابة إلى الحبشة وغيرها، إلا أن هجرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه الصديق رضي الله عنه كانت الحدث الأكبر في تاريخ الإسلام.

وقد انطلقت رحلة الهجرة من دار الصديق أبي بكر في أسفل مكة في خط بني جمح، فيما يعرف اليوم بشارع أبي بكر الصديق بالمسفلة، حيث غادر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه ليلًا إلى جبل ثور، بجنوب مكة وصعدا الجبل ودخلا غاره المعروف، حيث مكثا فيه ثلاثة أيام، كانت بمثابة المرحلة الأولى من مراحل رحلة الهجرة الميمونة، توجها بعدها إلى المدينة المنورة عبر طريق صعب طويل، كتبت خطواته في ذاكرة الأجيال والتاريخ بخيوط من ذهب.

المؤرخون يتتبعون الخطى

وعكف كثير من المؤرخين المسلمين على مر العصور على تسجيل وقائع هذه الرحلة النبوية، منهم المؤرخ عبد القدوس الأنصاري -رَحِمَهُ اللَّهُ- الذي رسم لنا خط هذه الرحلة النبوية الكريمة، عندما قام بتسجيل وقائع هذه الرحلة في كتابه الموسوم (طريق الهجرة النبوية)، شرح فيه هذه الهجرة وطرقها وتفاصيلها بأسلوب علمي سهل ممتنع، ولا شك أن طريق الهجرة النبوية هو جزء لا يتجزأ من الهجرة، فكان الكتاب عن الهجرة وعن طريقها.

كما أن للعلامة المعاصر عاتق بن غيث البلادي كتابًا موسومًا بـ(على طريق الهجرة)، هو نتاج

رحلات عديدة قام بها المؤلف بين مكة المكرمة والمدينة المنورة على طريق الهجرة وعلى مدى عدة سنوات، تحدث البلادي فيه عن تجربته هذه حيث يقول: «من هنا كان عزمي على القيام بهذه الرحلات خلال ست سنوات مضت، شاهدت فيها معظم المنطقة المعروفة بالوسيط (بين مكة والمدينة) وما حولها. فحددت الأماكن التاريخية التي غزاها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والتي حدثت فيهاالحوادث أو وردت في شعر الشعراء، ثم تابعت الطرق والمسالك والمحطات، ففصلتها تفصيلًا أرجو أن أكون قد وفقت فيه، فهذا كتاب مشاهدة مقرونة بما خف من النصوص والشواهد، مركزًا فيه على الأماكن التاريخية والإسلامية خاصة، مبينًا الأخطاء التي وقع فيها من سبقني».

ويكمل البلادي قائلًا: «وبذلت جهدي – بعد المشاهدة – في تحديد طريق الهجرة بما لم يتعرض له أحد قبلي، فقد تابعته متابعة من يقص الأثر ويقتفي الضالة، فعاينت المسالك والمخارج التي يمكن أن يسلكها مهاجر يتخفى عن أعين الناس، ويحتاج إلى السير ليلًا، وإلى مناهل المياه المستورة والطرق البعيدة عن أعين الرقباء والطامعين في الجائزة المبذولة لمن يقبض على محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ».

كما تحدث البلادي عن كتاب الأستاذ عبد القدوس (طريق الهجرة النبوية) والذي كان الأنصاري قد أهداه له قبل أن يطبع البلادي كتابه (على طريق الهجرة)، يقول البلادي عن كتاب الأنصاري: «إنه ذو قيمة تاريخية، جمع فيه معظم النصوص عن الهجرة ومناسباتها». وقال إن الكتابين (كتابه وكتاب الأنصاري) يتممان بعضهما جغرافيًا وتاريخيًا في كل ما يتعلق بالهجرة النبوية الشريفة.

مراحل الهجرة

يمكن تقسيم رحلة الهجرة النبوية الشريفة إلى عدة مراحل. لا شك أن مرحلتها الأولى كانت في جبل ثور وغاره، ثم أتت المراحل الأخرى من هذه الرحلة الميمونة إلى نهايتها، بوصوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصاحبه الصديق رضي الله عنه إلى المدينة المنورة.

يقول الأنصاري –رَحِمَهُٱللَّهُ–: إنه «بعد وصول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى دار أبي بكر الواقعة في خط بني جمح بأسفل مكة أي جنوبها، خرجا ماشيين على أقدامهم، بعد خروجهما من خوخة في ظهر دار أبي بكر المشار إليها، كتمانًا لتحركاتهما عن الأعداء الراصدين لهما في كل مكان، ومن ثم ذهبا حالًا إلى (جبل ثور) ودخلا (غاره) ومكثا به ثلاثة أيام». ثم يقول الأنصاري: إن أبا بكر أمر ابنه عبد الله أن

يتسمع لهما ما يقول الناس، ثم يأتي ليلًا يخبره بذلك، وأنه رضي الله عنه أمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه بالنهار وأن يأتيهم مساءً بالحليب وغيره، ثم يتبع الغنم أثر عبد الله بن أبي بكر إذا عاد فيمحى بذلك أثره، وأمر أسماء بنت أبي بكر أن تأتيهما بالطعام مساء. وبذلك مضت هذه المرحلة المهمة من مراحل الهجرة، والتي كان جبل ثور وغاره مسرحًا لها، هذا الغار الذي قال عنه الفاكهي: إنه الغار الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم.

وجبل ثورجبل من جبال مكة المكرمة جاء ذكره في المصادر التاريخية المبكرة والمتأخرة، عرّفه قاموس الصحاح بأنه – ثورًا- جبل بمكة وفيه الغار المذكور في القرآن الكريم، ويقال له ثور أطحل، نسب إليه ثور بن عبد مناف؛ لأنه نزله.

أما في (أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه) الذي حققه معالي الدكتور عبدالملك بن دهيش، فلقد ذكر الفاكهي من علماء القرن الثالث الهجري أن ثورًا في طريق عرفة على يسارك، وهو الغار الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).

كما بين عبد الله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧هـ في (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع)، والذي حققه الدكتور مصطفى السقا أن ثورًا، بفتح أوله، وبالراء المهملة: وهو ثور أطحل، وبالطاء والحاء المهملتين، وهو جبل بمكة، الذي فيه غار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كماذكر أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندري المتوفى سنة ٥٦١هـ في كتابه (كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها) من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز، والذي حققه العلامة حمد الجاسر أن: جبل ثور قرب مكة كان رسول الله ﷺ أوى إليه عند خروجه مهاجرًا».

وذكر العلامة عاتق بن غيث البلادي ثورًا بقوله: ثور: جبل ضخم يقع جنوب مكة يرى من عمرة التنعيم جنوبًا، ذو رؤوس مدببة، أمغر يرتفع عن سطح البحر (٥٠٠) متر، فيه من الشمال غار ثور المشهور». وقال: إنه يقع بين سهل وادي المفجر شرقًا وبطحاء قريش غربًا، ويفصله عن مجموعة جبال مكة فج يسمى المفجر.

وذكرت الباحثة رقية حسين سعد نجيم أن ثورًا، يشرف على حي الهجرة يفصله عنه طريق كدي، وهو على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب من المسجد الحرام.

ولقد قُدر لي أن أزور جبل ثور في أوائل القرن الواحد والعشرين الميلادي (عام ١٤٢١هـ) مع صحبة فاضلة منهم معالي الدكتور أحمد محمد علي، وسعادة الدكتور أنور عشقي، وسعادة الدكتور عادل بشناق وغيرهم من الأصدقاء الأفاضل، فوجدته قريبًا من أوصافه التي وردت في كثير من المصادر، وقد استغرق طلوعنا الجبل إلى الغار حوالي ساعة ونصف الساعة، أما نزولنا منه فقد تطلب وقتًا أقل من ذلك بقليل.

التزود للرحلة

ذكر الأنصاري أنه بعدانقضاء ثلاثة أيام على وجود الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه في الغار، وبعد أن سكن طلب الناس عنهما أتاهما صاحبهما الذي استأجراه، ببعيرهما، وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما – أي زادهما – ونسيت أن تجعل للسفرة عصامًا – ما تعلق به السفرة – فلما ارتحلا ذهبت تعلق السفرة تلك بنطاقها الذي شقته فسميت بذلك: (ذات النطاقين) رضي الله عنها».

وهنا بدأت الخطوة الثانية من خطى الهجرة التي يقول عنها الأنصاري -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «كانت الخطوة الثانية من مخرج غار جبل ثور بأسفل مكة، أي جنوبها الشرقي، حيث كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه أبوبكر، ومولى صاحبه: عامر بن فهيرة، ودليلهم عبد الله بن أريقط الذي سلك بهم طريقًا غير عام وغير معتاد سلوكه، وكانوا كلهم يمتطون الرواحل صوب المدينة»، ويستطرد الأنصاري قائلًا: «وكان اسم الناقة التي امتطاها الرسول ﷺ: (الجدعاء) على رواية أبي اسحق، و(القصواء) على رواية الواقدي».

جدة على طريق الهجرة

ويستطرد الأنصاري قائلًا إنه: «يبدو جليًا، أن أغلب الخط الذي سلكه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هجرته إلى المدينة لم يكن (الطريق الأعظم) الذي اعتاد الناس سلوكه بين المدينتين. ويعلل ذلك أن الهجرة بدأت بالاتجاه جنوبًا بالرغم من أن وجهتها كانت في الشمال، ويرى الأنصاري أن سبب ذلك هو لإبعاد عيون قريش عن خط مسيرتهم. ويبين الأنصاري أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه صاحبه سارا من جبل ثور ليلتهما، ومن الغد إلى الظهر ورأيا صخرة طويلة، فسوى أبوبكر عندها مكانًا ليقيل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليستظل بظلها، فنام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بقية ظلها وحرسه أبوبكر». ويستطرد الأنصاري قائلًا: إنه عندما استيقظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إغفاءته كان

أبوبكر قد أحضر له (كثبة) – قليلًا – من لبن احتلبه له فتى من غلمان قريش كان يرعى هناك بعض غنمهم. يقول الأنصاري: إن ذلك يدلنا على أن «هذه الصخرة كانت حول موقع جدة تقريبًا وقبل محطة عسفان على كل حال».

ويتحدث الأنصاري عن الصخور التي وصفت بالطول أو تلك الصخور الطويلة التي رآها في رحلاته في طريق الهجرة فيقول:

أولًا: هذه الصخرة التي وصفت في طريق الهجرة النبوية بأنها طويلة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استظل ببقية ظلها في الهاجرة ونام في ظلها هنيهة وشرب لبنًا عندها.

ثانيًا: وهناك صخرة أخرى طويلة قال (الأنصاري): إنه شاهدها في طريقه إلى بلاد سليم وذكر أن شكلها يشبه عنق الجمل.

ثالثًا: وهناك صخرة ثالثة وصفت بأنها طويلة أيضًا. ويقول الأنصاري: إنه ذكرها في كتابه «تاريخ مدينة جدة» ويقول: إن هذه الصخرة الطويلة كانت تقع قرب مدينة جدة في الجهة الجنوبية منها وذكر أنها كانت تسمى (سعدا).

في قباء

ويكمل الأنصاري رحمه الله بقوله: «ثم سلك عبد الله بن أريقط بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسفل وادي أمج ومعنى الأمج (العطش)، ويقول: إن وادي أمج كان من منازل خزاعة غير بعيد عن قديد. ومن هناك أكمل الركب الكريم رحلته الميمونة إلى المدينة المنورة إلى أن أشرقت شمس الركب النبوي على قرية قباء إيذانًا بانتهاء الرحلة المباركة ووصوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه إلى طيبة الطيبة دار الهجرة، وحتى بركت ناقته في المكان الذي كانت مأمورة أن تذهب إليه جهة دار بني مالك بن النجار في الناحية الشرقية من المدينة المنورة، حيث بنى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجده.

هذا وذكر الأنصاري أنه من المعلوم تاريخيًا «أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل المدينة من شمالها، من ثنية الوداع». ويقول: إنه «كان الخط الطبيعي لدخوله المدينة أن يكون من جنوبها رأسًا، لأنه وافاها من قباء التي تقع جنوبها». ويبين الأنصاري أن لهذه المسيرة الخاصة حكمة اجتماعية ذات مغزى عال، وأهمية بالغة، فإنه عليه السلام آثر أن يتبع منازل قبائل الأنصار المقيمة في الجهات الغربية والشمالية من ضواحي المدينة ليمر عليها قبل دخول طيبة فيكون تعارف وتآلف في مستهل قدومه المبارك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(سورة النساء ٣٠-٩٤)

بقلم: رئيس التحرير

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٣٠]

فإن قلت: الظلم والعدوان بمعنى، فما فائدة العطف؟

أجيب من وجوه:

الأول: ﴿عُدْوَٰنًا﴾ أي إفراطًا في التجاوز عن الحد، و ﴿وَظُلْمًا﴾ أي إيتاءً بما لا يستحقه. ذكره البيضاوي، وأبوالسعود، والآلوسي(١).

الثاني: وقيل: هما بمعنى، فالعطف للتفسير. ذكره الآلوسي(٢).

الثالث: وقيل: أريد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم الظلم على النفس بتعريضها للعقاب. ذكره البيضاوي، والآلوسي(٣).

الرابع: أما قوله: «عدْوانًا»، فإنه يعني به تجاوزًا لما أباح الله له، إلى ما حرمه عليه «وُ ظلمًا»، يعني: فعلًا منه ذلك بغير ما أذن الله به، وركوبًا منه ما قد نهاه الله عنه. ذكره الطبري(٤).

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديًا فيه ظالمًا في تعاطيه، أي: عالمًا بتحريمه متجاسرًا على انتهاكه. ذكره ابن كثير(٥).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]

فإن قلت: ما فائدة إعادة الباء في قوله: (بِذِى القُرْبىٰ) وقد سبق في سورة البقرة قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣] ولم يعد فيها الباء؟

أجاب عنه أبوحيان فقال: وإعادة الباء تدل على التوكيد والمبالغة، فبولغ في هذه الآية؛ لأنها في حق هذه الأمة، ولم يبالغ في حق تلك، لأنها في حق

بني إسرائيل. والاعتناء بهذه الأمة أكثر من الاعتناء بغيرها، إذ هي خير أمة أخرجت للناس(٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء:٣٨]

فإن قلت: ما فائدة إعادة «لا» وحرف الجر والعطف سائغ دونه؟

أجاب عنه أبوحيان فقال: وتكرار «لا» وحرف الجر في قوله: ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ مفيد لانتفاء كل واحد من الإيمان بالله، ومن الإيمان باليوم الآخر؛ لأنك إذا قلت: لا أضرب زيدًا وعمرًا، احتمل أن لا تجمع بين ضربيهما. ولذلك يجوز أن تقول بعد ذلك: بل أحدهما. واحتمل نفي الضرب عن كل واحد منهما على سبيل الجمع، وعلى سبيل الإفراد. فإذا قلت: لا أضرب زيدًا ولا عمرًا، تعين هذا الاحتمال الثاني الذي كان دون تكرار(٧).

٤- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

في الآية بدهيات:

الأولى:

فإن قلت: ما فائدة إعادة الفعل في قوله: (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) والعطف يغني عنه؟

قلنا: فيه وجوه:

الأول: ما ذكره ابن عاشور فقال: وإنّما أعيد فعل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ مع أنّ حرف العطف يغني عن إعادته إظهارًا للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول لتكون أعلى مرتبة من طاعة أولي الأمر، و لينبّه على وجوب طاعته فيما يأمر به، ولوكان أمره غيرمقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلّا يتوهّم السامع أنّ طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلّغه عن الله دون ما يأمر به في غيرالتشريع، فإنّ امتثال أمره كلّه خير، ألا ترى أنّ النبي ﷺ دعا أبا سعيد بن المعلَّى، وأبو سعيد يصلي، فلم يجبه، فلمّا فرغ من صلاته، جاءه، فقال له: «ما منَعك أن تجيبني»؟ فقال: «كنت أصلّي» فقال: «ألم يقل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٤]»(٨)؛ ولذلك كانوا إذا لم يعلموا مراد الرسول من أمره ربما سألوه: أهو أمر تشريع أم هو الرأي والنظر، كما قال له الحباب بن المنذر يوم بدر حين نزل جيش المسلمين: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نجتازه أم هو الرأي و الحرب والمكيدة؟ قال: بل الرأي والحرب والمكيدة... الحديث. ولمّا كلّم بريرة في أن تراجع زوجها مُغيثًا بعد أن عَتَقَتْ، قالت له: أتأمرُ يا رسول الله أم

تشفع؟ قال: بل أشفع، قالت: لا أبقى معه[٩].

ولما قال للذين يؤبرون النخل: «لو لم يفعلوا لصَلَح»، قال: فخرج شيصًا، فمر بهم، فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم. ولهذا لم يُعَدْ فعل ﴿فَرُدُّوهُ﴾ في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ لأنّ ذلك في التحاكم بينهم، والتحاكم لايكون إلاّ للأخذ بحكم الله في شرعه، ولذلك لا نجد تكريرًا لفعل الطاعة في نظائر هذه الآية التي لم يعطف فيها أولو الأمر، مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠] وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ [الأنفال:٤٦]، و ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، إذ طاعة الرسول مساوية لطاعة الله؛ لأنّ الرسول هو المبلّغ عن الله، فلا يتلقّى أمر الله إلاّ منه، وهو منفّذ أمر الله بنفسه، فطاعته طاعة تلقّ وطاعةُ امتثال؛ لأنه مبلّغ ومنفّذ، بخلاف أولي الأمر؛ فإنّهم منفّذون لما بلغه الرسول، فطاعتهم طاعة امتثال خاصّة[١٠].

الثاني: قال الرازي: قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فأفرَدَهُ بالذِّكْر ثم قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ وهذا تَعليمٌ من الله لنا الأدب، ولذلك «رُوِيَ أن رجلًا قال بِحَضْرَة الرَّسُول - عليه الصلاة والسلام-: «مَنْ أطَاعَ اللهَ والرَّسُولَ فَقَدْ رشَدَ ومَنْ يَعْصِهِمَا فقد غَوَى»، فقال -عليه السلام-: «بِئْس الخَطِيبُ أنْتَ هَلا قُلْتَ: مَنْ عَصَى اللهَ وعَصَى رَسُولَهُ»[١١] أو لفظ هذا مَعْنَاه؛ وذلك لأنَّ الجَمْعَ بينَهُمَا في اللَّفْظِ يوهِمُ نَوْع مُنَاسَبةٍ ومُجَانَسة، والله - تعالى- مُنَزَّهٌ عن ذلك[١٢].

الثالث: أعاد الفعل وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى اعتناءً بشأنه عليه الصلاة و السلام وقطعًا لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن[١٣].

الرابع: أعاد الفعل وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى إيذانًا بأن له صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ استقلالًا بالطاعة لم يثبت لغيره، ومن ثمّ لم يعد في قوله سبحانه: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ إيذانًا بأنهم لا استقلال لهم فيها استقلال الرسول ﷺ. ذكره الآلوسي[١٤].

٢- أليس طاعة الله هي طاعة الرسول، فما فائدة العطف؟

أجاب عنه الرازي فقال: قال القاضي: الفائدة في ذلك بيان الدلالتين، فالكتاب يدل على أمر الله، ثم نعلم منه أمر الرسول لا محالة، والسنة تدل على أمر الرسول، ثم نعلم منه أمرالله لا محالة، فثبت بما ذكرنا أن قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يدل على وجوب متابعة الكتاب والسنة[١٥].

٣- فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ

تُؤْمِنُـــونَ﴾ مع أنهم قد خوطبوا بـ(يَـــٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِيـــنَ ءَامَنُوٓاْ)؟

قلنا: فيه وجوه:

الأول: معنى ﴿إِن كُنـتُمْ تُؤْمِنُـونَ﴾ مع أنّهم خوطبوا بـ﴿يَـــٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِيـــنَ ءَامَنُـــوٓاْ﴾: أي إن كنتم تؤمنون حقًّا، وتلازمون واجبات المؤمن، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِـــكَ خَـــيْرٌ﴾ فجيء باسم الإشارة للتنويـــه، وهـــي إشـــارة إلى الـــردّ المـــأخوذ مـــن ﴿فَرُدُّوْهُ﴾. ذكره ابن عاشور(١٦).

الثاني: ﴿إِن كُنـــتُمْ تُؤْمِنُـــونَ بِـــٱللَّهِ وَٱلْيَـــوْمِ ٱلْـَٔاخِـرِ﴾ شرط وجوابه محذوف، أي: فردوه إلى الله والرسول. وهو شرط يراد به الحض على اتباع الحق، لأنه ناداهم أولًا بـ«يا أيها الذين آمنوا»، فصار نظير: إن كنت ابني فأطعني. وفيه إشعار بوعيد من لم يرد إلى الله والرسول. ذكره أبوحيان(١٧).

٥- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَـمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَـنْهُمْ وَعِظْهُـمْ وَقُـل لَّهُـمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣]

فإن قلت: الوعظ والقول البليغ بمعنى، فما فائدة العطف؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: أن المـراد بـالوعظ التخويـف بعقـاب الآخـرة، والمـراد بـالقول البليـغ التخويـف بعقـاب الدنيا، وهوأن يقول لهم: إن ما في قلوبكم من النفاق والكيـد معلـوم عنـد الله، ولا فـرق بيـنكم وبـين سـائرالكفار، وإنـما رفـع الله الـسيف عـنكم؛ لأنكـم أظهـرتم الإيـمان، فـإن واظبـتم عـلى هـذه الأفعـال القبيحـة ظهـر للكـل بقـاؤكم عـلى الكفـر، وحينئـذ يلزمكم السيف. ذكره الرازي(١٨).

الثاني: أن القول البليغ صفة للوعظ، فأمرتعالى بالوعظ، ثم أمرأن يكون ذلك الوعظ بالقول البليغ، وهـو أن يكـون كلامًـا بليغًـا طـويلًا حـسن الألفـاظ حـسن المعـاني مـشتملا عـلى الترغيـب والترهيـب والإحذار والإنذار والثواب و العقاب، فإن الكلام إذا كـان هكـذا عظـم وقعـه في القلـب، وإذا كـان مختـصرًا ركيـك اللفـظ قليـل المعنـى لم يـؤثر البتـة في القلب. ذكره الرازي(١٩).

الثالث: ﴿وَعِظْهُـمْ﴾ أي ازجُرْهم عن النفاق والكيد ﴿وَقُـل لَّهُـمْ فِىٓ أَنفُـسِهِمْ﴾ في حق أنفسِهم الخبيثةِ وقلـوبِهم المُنْطويـةِ عـلى الـشرور التي يعلمها الله تعـالى، أو في أنفـسهم خاليًـا بهـم لـيس معهـم غيرُهم مُسارًّا بالنصيحة؛ لأنها في السرّ أنجَعُ ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ مؤثرًا واصِلًا إلى كُنه المرادِ مطابقًا لما سيق له من المقصود، فالظرفُ على التقديرين متعلقٌ بالأمر، وقيـل: متعلـقٌ بـ«بليغًـا» عـلى رأي مـن يُجيـز تقـديمَ معمولِ الصفةِ على الموصوف أي قل لهم قولًا بليغًا في أنفـسهم مـؤثرًا في قلـوبهم يغتمّـون بـه اغتمامًـا، و يستـشعرون منـه الخـوفَ استـشعارًا، وهـو التوعُّـدُ

بالقتل والاستئصالِ، والإيذانُ بأن ما في قلوبهم من مكنونات الشرِّ والنفاقِ غيرُخافٍ على الله تعالى، وأن ذلك مستوجِبٌ لأشد العقوباتِ، وإنما هذه المكافأةُ والتأخيرُ لإظهارهم الإيمانَ والطاعةَ وإضمارِهم الكفرَ، ولئن أظهروا الشقاقَ وبرَزوا بأشخاصهم من نفق النفاقِ لَيَمسَّنهم العذابُ، إن الله شديدُ العقاب. ذكره أبو السعود، والثعالبي[٢٠].

الرابع: (وَعِظْهُمْ): أي خوفهم بعذاب الله وازجرهم، وأنكرعليهم أن يعودوا لمثل ما فعلوا. والقول البليغ هو الزجر والردع. قال الحسن: هوالتوعد بالقتل إن استداموا حالة النفاق. ويتعلق قوله: (فِي أَنْفُسِهِم) بقوله: (قُلْ) على أحد معنيين أي: قل لهم خاليًا بهم، لا يكون معهم أحد من غيرهم مسارًا؛ لأنّ النصح إذا كان في السرّ كان أنجح، وكان بصدد أن يقبل سريعًا. ومعنى بليغًا: أي مؤثرًا فيهم. أوقلْ لهم في معنى أنفسهم النجسة المنطوية على النفاق قولًا يبلغ منهم ما يزجرهم عن العود إلى ما فعلوا. ذكره أبوحيان، والآلوسي[٢١].

وقال الزمخشري: فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿فى أَنفُسِهِمْ﴾؟ قلت: بقوله: (بليغًا) أي: قل لهم قولًا بليغًا في أنفسهم مؤثرا في قلوبهم يغتمون به اغتمامًا، ويستشعرون منه الخوف استشعارًا، وهوالتوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلع قرنه، وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين، وما هذه المكافَّة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف أويتعلق بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ أي قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولًا بليغًا، وأنّ الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفي عليه، فلا يغني عنكم إبطانه. فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه، وشرًا من ذلك وأغلظ. أو قل لهم في أنفسهم خاليًا بهم، ليس معهم غيرهم، مسارًّا لهم بالنصيحة؛ لأنه في السر أنجع، وفي الإمحاض أدخل ﴿قولًا بليغًا﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم[٢٢].

ورده أبوحيان فقال: وتعليقه ﴿فِى أَنفُسِهِمْ﴾ بقوله: ﴿بَلِيْغًا﴾ لا يجوز على مذهب البصريين؛ لأن معمول الصفة لا يتقدّم عندهم على الموصوف. لوقلت: هذا رجل ضارب زيدًا لم يجز أن تقول: هذا زيدًا رجل ضارب؛ لأن حق المعمول ألا يحل إلا في موضع يحل فيه العامل، ومعلوم أن النعت لا يتقدّم على المنعوت؛ لأنه تابع، والتابع في ذلك بمذهب الكوفيين. وأما ما ذكره الزمخشري بعد ذلك من الكلام المسهب فهو من نوع الخطابة، وتحميل لفظ القرآن ما لا يحتمله، وتقويل الله تعالى ما لم يقله،

وتلك عادته في تفسيره وهو تكثير الألفاظ. ونسبة أشياء إلى الله تعالى لم يقلها الله تعالى، ولا دل عليها اللفظ دلالة واضحة، والتفسيرفي الحقيقة إنما هو شرح اللفظ المستغلق عند السامع مما هو واضح عنده مما يرادفه أو يقاربه، أوله دلالة عليه بإحدى طرق الدلالات. وحكي عن مجاهد أن قوله: في ﴿أَنْفُسِهِم﴾ متعلق بقوله: ﴿مُصِيْبَةٌ﴾ وهو مؤخر بمعنى التقديم، وهذا ينزه مجاهد أن يقوله، فإنه في غاية الفساد(٢٣).

الخامس: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾، يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، و لكن عظهم بتخويفك إياهم بأسَ الله أن يحلّ بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذِّرهم من مكروهِ ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله،﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغَا﴾، يقول: مرهم باتقاء الله و التصديق به وبرسوله ووعده ووعيده. ذكره الطبري(٢٤).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابَا رَّحِيمَا﴾ [النساء:٦٤]

لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح لكانت توبتهم مقبولة، فما الفائدة في ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفةً لحكم الله، وكان أيضًا إساءةً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وإدخالًا للغم في قلبه، ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفرلهم. ذكره الرازي، و أبوحيان(٢٥).

الثاني: أن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمرد، فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويطلبوا منه الاستغفار. ذكره الرازي، وأبوحيان(٢٦).

الثالث: لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول والله أعلم. ذكره الرازي، والزمخشري، وأبوحيان، و أبوالسعود، والآلوسي، والنسفي(٢٧).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَّآتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمَا﴾ [النساء:٦٧]

فإن قلت: ما فائدة قوله: (مِنْ لَدُنَّا) بعد قوله: (آتَيْنَاهُمْ) فإن الله تعالى إنما يؤتيهم من عنده؟

قلنا: فيه وجوه:

الأول: قال الرازي: أقول: إنه تعالى جمع في

هـذه الآيـة قـرائن كثيرة، كـل واحـدة منهـا تـدل عـلى عظم هذا الأجر.

أحـدها: أنـه ذكـر نفسه بـصيغة العظمـة وهـي قوله: ﴿ءَاتَيْنَـاهُ﴾ وقوله: ﴿مِّـن لَّدُنَّـا﴾ والمعطي الحكيم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على عظمة عند الوعد بالعطية دل ذلك على عظمة تلك العطية.

وثانيها: قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّـا﴾ وهذا التخصيص يدل على المبالغة، كما في قوله: ﴿وَ عَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّـا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

وثالثهـا: أن الله تعـالى وصـف هـذا الأجـر بـالعظيم، والـشيء الـذي وصـفه أعظـم العظـماء بالعظمة لا بد وأن يكون في نهاية الجلالة، وكيف لا يكون عظيمًا، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٢٨).

الثاني: إنما ذكر (مِنْ لَّدُنَّا) تأكيدًا ومبالغةً وهو متعلـق بآتينـاهم، وجـوز أن يكـون حـالًا مـن ﴿أَجْرًا﴾. ذكره الآلوسي(٢٩).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَـل لَّنَـا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:٧٥]

فإن قلت: ما فائدة تكرير الفعل ومتعلقيه، والعطف يغني عنه؟

أجاب عنه أبوالسعود فقال: وكلا الجارَّيْنِ متعلـقٌ باجْعـل لاخـتلاف معنيـيهما، وتقـديمُ المجرورين على المفعول الصريحِ لإظهارالاعتناءِ بهما وإبرازِ الرغبةِ في المؤخَّر بتقديمِ أحوالِه؛ فإن تأخيرَ ما حقُّه التقديمُ عما هو من أحواله المُرَغّبة فيه، كما يورث شوقَ السامعِ إلى وروده يُنبىء عن كمال رغبةِ المتكلّمِ فيه واعتنائِه بحصوله لا محالة، وتقديمُ اللامِ على مِنْ للمسارعة إلى إبراز كونِ المسؤولِ نافعًا لهم مرغوبًا فيه لـديهم، ويجـوزُ أن تتعلـقَ كلمـةُ مِـن بمحذوف وقع حالًا من وليًا قُدِّمت عليه لكونه نكرةً، وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِـن لَّدُنكَ نَـصِيرًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي ولِّ علينا واليًا من المؤمنين يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفَظ علينا ديننَا وشَرْعَنا وينصُرنا على أعدائنا، ولقد استجاب الله عز وجل دعاءَهم حيث يسّر لبعضهم الخروجَ إلى المدينة، وجعل لمن بقيَ منهم خيرَ وليٍّ وأعزَّ ناصِر، ففتح مكةَ على يدي نبيِّه عليه الصلاة والسلام، فتولاهم أيَّ تولٍ ونصرهم أيةَ نُصرةٍ، ثم استعمل عليهم عتابَ بنَ أسيد و نصرهم حتى صاروا أعزَّ أهلِها، وقيل: المرادُ: واجعل لنا من لدنك ولايةً ونُصرةً أي كن أنت وليَّنا وناصِرَنا، وتكريـرُ الفعـلِ ومتعلِّقَيْـه للمبالغـة في التـضرع والابتهال(٣٠).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾.[النساء:٨٩]

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ بعد قوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ فإنهم إذا كفروا كانوا سواء؟

أجاب عنه ابن عاشور فقال: وجملة ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ تفيد تأكيد مضمون قوله: ﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾ قصد منها تحذير المسلمين من الوقوع في حِبالة المنافقين(٣١).

١٠ - قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء:٩٤].

في الأية بدهيتان:

الأولى:

فإن قلت: التبين واجب في السفر وفي غيره، فما فائدة التقييد بالسفر؟

قلنا: تقييد ذلك بالسفر؛ لأن عدم التبين كان فيه، لا؛ لأنه لا يجب إلا فيه، والمعنى: لا تقولوا لمن أظهر لكم ما يدل على إسلامه: ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ وإنما فعلت ذلك خوف القتل؛ بل اقبلوا منه ما أظهر وعاملوه بموجبه. ذكره الآلوسي، والقرطبي(٣٢).

الثانية:

فإن قلت: ما فائدة التكرار في قوله: (فَتَبَيَّنُواْ) وقد سبق في أول الآية؟

والجواب من وجوه:

الأول: للتأكيد. ذكره الطبري، والثعالبي والسيوطي، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي وابن كثير، والشوكاني، وأبوحيان، والنسفي(٣٣).

وعن هذا عبر ابن عاشور فقال: «وقد دلّت الآية على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية، و هي بثّ الثقة والأمان بين أفراد الأمّة، وطرح ما من شأنه إدخال الشكّ؛ لأنّه إذا فتح هذا الباب عسر سَدّه، وكما يتّهم المتّهمُ غيرَه؛ فللغير أن يتّهم مَن اتّهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تُظلّ الصادق والمنافق، وانظر معاملة النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- المنافقين معاملة المسلمين على أنّ هذا الدين سريع السريان في القلوب، فيكتفي أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة، إذ لا يلبثون أن يألفوه، وتخالط بشاشتُه قلوبَهم، فهم يقتحمونه على شكّ وتردّد فيصير إيمانًا راسخًا، وممّا يعين على ذلك ثقة السابقين فيه باللاحقين بهم. و من أجل ذلك أعاد الله

الأمرَفقال: ﴿فتبَيّنــوا﴾ تأكيدًا لـ(تبينوا) المذكورِ قبْله(٣٤).

الثاني: أعاد الأمربالتبيين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُــواْ﴾ وإعادة الأمر بالتبيين تدل على المبالغة في التحذيرعن ذلك الفعل. ذكره الرازي(٣٥).

الثالث: يحتمل أن يكون ﴿فَتَبَيَّنُــواْ﴾ في قراءة من جعله من التبين، أن لا يكون تأكيدًا لاختلاف متعلق التبين. فالمعنى في الأول: فتبينوا أمرمن تقدمون على قتله، وفي الثاني: فتبينوا نعمة الله عليكم بالإسلام. ذكره أبوحيان(٣٦).

* * *

الهوامش:

(١) البيضاوي في تفسير الآية؛ أبوالسعود في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٦.

(٢) الآلوسي٥/١٦.

(٣) البيضاوي في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٦.

(٤) الطبري ٨/٢٣١.

(٥) ابن كثير ٢/٢٧١.

(٦) أبوحيان في تفسير الآية.

(٧) أبوحيان في تفسير الآية.

(٨) الحديث: رواه أبوداود في كتاب الوتر في فاتحة الكتاب ٢/٧٣ [١٤٥٩].

(٩) الحديث: رواه البخاري في الطلاق باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة [٥١٦٢].

(١٠) ابن عاشور في تفسير الآية.

الحديث: رواه مسلم في الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي – (١٨٣٦/٤) [٢٣٦٣] ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(١١) رواه مسلم في الصحيح في باب تخفيف الصلاة والخطبة ٦/١٣٢[١٩٦٠] بلفظ: أن رجلا خطب عند النبي ﷺ فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ بئس الخطيب أنت. قل: «ومن يعص الله ورسوله». من حديث عدي بن حاتم.

(١٢) الرازي ٥/٢١٦.

(١٣) الآلوسي٥/٦٥.

(١٤) الآلوسي٥/٦٥.

(١٥) الرازي ٥/٢٤٨.

(١٦) ابن عاشور في تفسير الآية.

(١٧) أبوحيان في تفسير الآية.

(١٨) الرازي ٥/٢٦٣.

(١٩) الرازي ٥/٢٦٣.

(٢٠) أبوالسعود ٢/١٠٧؛ الثعالبي في تفسير الآية.

(٢١) أبوحيان في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/٦٩.

(٢٢) الزمخشري في تفسير الآية.

(٢٣) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٤) الطبري في تفسير الآية.

(٢٥) الرازي في تفسير الآية ؛ أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٦) الرازي في تفسير الآية ؛ أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٧) الرازي في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ أبو حيان في تفسير الآية؛ أبو السعود٢/١٩٨؛ الآلوسي٥/٧٠؛ النسفي في تفسير الآية.

(٢٨) الرازي في تفسير الآية.

والحديث: رواه البخاري في بدء الوحي باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣/١٢٠١[٣١٧٤].

(٢٩) الآلوسي٤/١٢٠.

(٣٠) أبوالسعود ٢/٢٠٤؛ وراجع: الآلوسي٥/٨١.

(٣١) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٣٢) الآلوسي٥/ ١١٨؛ القرطبي٥/٣٣٦.

(٣٣) الطبري ٥/١٢٥؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ السيوطي٢/٦٣١؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ ابن الجوزي ٢/ ١٤٦؛ القرطبي ٥/٣٤٠؛ ابن كثير٢/٣٤٠؛ الشوكاني تفسيرالآية؛ أبوحيان تفسير الآية؛ الشوكاني تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية.

(٣٤) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٣٥) الرازي ١١/١٩١.

(٣٦) أبوحيان في تفسير الآية.

* * *

لوحة الشرف للرعيل الأول من المؤمنين

بقلم: الأستاذ/ عبد المنعم النمر

إيمان وهجرة

منـذ أعلـن الرسـول ﷺ دعوتـه في مكـة، وزعماؤها المتسلطون على الرأي العام فيها يرون في مبادئ الدعوة الجديدة خطرًا على كيانهم، وتهديدًا لوثنيتهم، وقلبًا لأوضاعهم الاجتماعية، وذلك بما تبثه من توحيد للخالق واحترام للإنسان ومساواة بين الناس، وكان من الطبيعي أن يهب سدنة الوضع القديم الذين طابت لهم الحياة في ظله، والذين انتهت إليهم الرياسة والزعامة والثروة، كان من الطبيعي أن يهب هؤلاء ويستنفروا أتباعهم لخنق أنفاس الدعوة والداعي، ومطاردة كل من يتحدث بها، أو يميل إليها، ومحاولة القضاء على كل من يعتنقها.

آمن بها نفر قليل، ولكنهم كانوا معرضين للإبادة على يد الطغاة من أهل مكة، فالرسول لا يستطيع أن يحميهم من أعدائهم، وهو نفسه معرض للخطر.

ماذا يكون الموقف والتيار جارف؟ هل يقفون أمامه فيقضي عليهم أو يتركون له الطريق؟ ولكن إلى أين.. إلى أي مكان في الجزيرة؟ إن كل من في الجزيرة عباد صنم لا يؤمن جانبهم، وهناك في أطراف الجزيرة مسيحيون، ولكن لا يؤمن جانبهم، فلهم بالعرب صلات وجوار. فإلى أين إذن يتجهون؟.

كان ذلك ما شغل الرسول ﷺ بعد سنوات من بعثته.. وانتهى تفكيره إلى إيثار الهجرة والفرار إلى الحبشة.. التي يدين ملكها وشعبها بالمسيحية، ويحاربون عبادة الأصنام.. حيث الاتفاق في الاتجاه والهدف الذي جعل الرسول ﷺ يأمن لأجله على أصحابه ويقول: «فإن فيها ملكا لا يظلم، وإن الله سيجمعكم مرة ثانية». كانت تجربة شاقة خاضها نفر من المسلمين لا جريًا وراء كسب مادي، أو هدف شخصي.. خاضوها إيمانا منهم بدينهم واطمئنانًا لتوجيه رسولهم.

لم تكن رحلة يسيرة؛ بل كانت محفوفة بالأخطار، أخطار التخلص من مطارديهم في مكة، وأخطار البحر الذي سيركبونه، ثم أخطار البيئة الجديدة التي سينزلون إليها غرباء عنها، ولا يعرفون مصيرهم فيها وهم رجال ونساء؛ لكنه الإيمان.. يعلو على الأخطار.

فقد كان هؤلاء يقومون بتجربة خطرة في سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم، ويقدمون على تضحية جسيمة فداءً لإيمانهم.

فمن هم هؤلاء الذين قاموا بدور الطليعة في هذه التضحية؟

من هم أولئك الذين كانوا أول من ركب البحر من أتباع محمد، وأول من وطئت أقدامهم

أرض إفريقيا من المؤمنين بالدين الجديد الوليد؟

تعـرف علـيهم – أخـي القـارئ – في صـفحة الشرف والمجد، التي ضمت المؤمنين والمؤمنات، والتي نقدمها هنا إليك:

هجرة الحبشة الأولى

المهـاجرون: عـثمان بـن عفـان، أبـو سـلمة، أبـو سبرة، عامر بن ربيعة، أبو حذيفة بن عتبة، عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن مظعون، مصعب بن عمير، سهل بن البيضاء، الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

المهـاجرات: السيدة رقيـة بنـت الرسـول زوج عـثمان بـن عفـان، السيدة أم سـلمة زوج أبي سـلمة، السيدة أم كلثـوم زوج أبي سـبرة، السيدة لـيلى زوج عـامر بـن ربيعـة، السيدة سـهلة بنت سـهيل زوج أبي حذيفة بن عتبة رضي الله عنهن.

هجرة الحبشة الثانية

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة مرة ثانية حيث لم تطب لهم الإقامة هناك، ولما ضاقت الحيل بكفار قريش أجمعوا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب والتضييق عليهم، فلا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضـعوها في جـوف الكعبـة، فلجـأ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقومه إلى شعب بني هاشم، وأمام هذه العاصفة العاتية من عداء قريش أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين أن يهاجروا للحبشة مرة ثانية حتى لا يبادوا، فهاجر منهم نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة، فكانت هذه هي الهجرة الثانية للحبشة.

من المهاجرين: جعفر بن أبي طالب، عمرو بن سعيد بن العاص، خالد بن سعيد بن العاص، عبد الله ابن جحش بن رئاب، عبيد الله بن جحش بن رئاب، قيس بن عبد الله، معيقيب بن أبي فاطمة، أبو موسى الأشعري، عتبة بن غزوان، يزيد بن زمعة بن الأسود، عمرو بن أمية بن الحارث، طليب بن عمير بن وهب، سويبط بن سعد بن حريملة، جهم بن قيس، عمرو بن جهم، خزيمة بن جهم، أبو الروم بن عمير بن هاشم، فراس بن النضر بن الحارث، عامر بن أبي وقاص، المطلب بن أزهر، عبد الله بن مسعود، عتبة بن مسعود، المقداد بن الأسود، الحارث بن خالد التميمي، شرحبيل بن حسنة، عثمان بن ربيعة، خنيس ابن حذافة، عبد الله بن الحارث، هشام بن العاص، قيس بن حذافة بن عدي، عبد الله بن حذافة بن عدي، أبو قيس بن الحارث بن عدي، الحارث بن الحارث بن عدي، عمرو بن عثمان بن كعب، شماس ابن عثمان المخزومي، هبار بن سفيان المخزومي، عبد الله بن سفيان المخزومي، هشام بن أبي حذيفة المخزومي، سلمة بن هشام بن المغيرة، عياش بن أبي ربيعة، معتب بن عوف، قدامة بن مظعون، عبد الله ابن مظعون، السائب بن عثمان بن مظعون، حاطب بن الحارث بن معمر، محمد بن حاطب بن الحارث، الحارث بن حاطب بن الحارث، خطاب بن الحارث ابن معمر، سفيان بن معمر، جابر بن سفيان بن معمر،

أبو عبيدة عامر الجراح، عمرو بن أبي سرح بن أبي ربيعة، عمرو بن الحارث بن زهير، سعيد بن عبد قيس، السائب بن الحارث بن عدي، معمر بن الحارث ابن عدي، بشر بن الحارث بن عدي، سعيد بن الحارث بن عدي، سعيد بن عمرو التميمي، عمير بن رئاب، محمية بن جزء الزبيدي، معمر بن عبد الله العدوي، عروة بن عبد العزى، عدي بن فضلة بن عبد العزى، النعمان بن فضلة بن عبد العزى، عبدالله ابن مخرمة العامري، عبد الله بن سهيل بن عمرو، سليط بن عمرو، السكران بن عمرو، مالك بن ربيعة، أبو حاطب العامري، سعدة بن خولة، سهيل بن بيضاء، عياض بن زهير بن شداد بن أبي ربيعة، عثمان ابن عبد غنم، الحارث بن عبد قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

من المهاجرات: أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، فاطمة بنت صفوان زوج عمرو بن سعيد، أمينة بنت خلف الخزاعي زوج خالد بن سعيد، أم حبيبة بنت أبي سفيان، بركة بنت يسار زوج قيس بن عبد الله، أم حرملة بنت عبد الأسود زوج جهم بن قيس، رملة بنت أبي عوف زوج المطلب بن أزهر، ربطة بنت الحارث زوج الحارث بن خالد، فاطمة بنت المجلل زوج حاطب ابن الحارث، فكيهة بنت يسار، حسنة زوج سفيان ابن معمر، سودة بنت زمعة زوج السكران بن عمرو، عمرة بنت السعدي زوج مالك بن ربيعة، دعد بنت جحدم رضي الله عنهن.

ويصف جعفر بن أبي طالب مقامهم بأرض الحبشة، وما كان بينهم وبين النجاشي، وما كان من ملاحقة قريش لهم، فيقول:

«لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا خير جار، أمننا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي وبطارقته لكي يسلمونا لهم، فأرسلوا في أثرنا عمارة ابن الوليد وعمرو بن العاص، فقالا للنجاشي: «قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، جاءهم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله، ولم يتبعه منا إلا السفهاء، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم؛ ليردوهم إليهم، فهم أعلم بما عابوا عليهم».

فقال البطارقة: «صدقوا أيها الملك. قومهم أعلم بهم، فأسلمهم إليهما ليردوهم إلى بلادهم وقومهم». فغضب النجاشي وقال: «لا أسلمهم وقد جاوروني ونزلوا بلادي حتى أدعوهم فأسألهم عن حقيقة أمرهم».

قال جعفر: فأرسل إلينا النجاشي، فلما دخلنا عليه سلمنا، فقال من حضره: «ما لكم لا تسجدون للملك» قلنا: «لا نسجد إلا لله تعالى، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني» قلنا أيها الملك: كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث

الرسل إلى من قبلنا، وذلك الرسول منا. نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته، فدعانا إلى توحيد الله، وخلع ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الأحجار، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعدا علينا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا ألا نُظلم عندك.

فقال النجاشي لجعفر: هل عندكم شيء مما جاء به؟ قلت: نعم، قال: فاقرأ علي، فقرأت عليه صدرًا من سورة مريم. فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، ورد عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص مبعوثَي قريش أقبح رد، وعاش المهاجرون في جوار النجاشي آمنين مطمئنين حتى استتب الأمر للمسلمين في المدينة فأخذوا في الرجوع إليها».

المبايعون في العقبة

وكان الرسول ﷺ يلتمس المعين والنصير ويعمل جاهدا لفتح آفاق جديدة للإسلام، فانتهز فرصة مجيء العرب من كل ناحية للحج. وكان المشركون يحجون للبيت في أيام الجاهلية، فكان يخرج إليهم ويتحدث معهم عن الدعوة التي أرسله الله بها ويدعوهم للإسلام. وكان زعماء الشرك يتابعونه أينما سار؛ ليفسدوا عليه خطته ويحولوا بين الدعوة وبين الناس. ولكن الله سبحانه كان يدخر فضلا عظيما لأهل المدينة، فقد أقبل جماعة منهم لموسم الحج، وتحدث الرسول معهم عن الإسلام، فشرح الله صدرهم له وأسلموا، وكان عددهم ستة، كلهم من قبيلة الخزرج، وتفتحت بذلك بارقة أمل جديد للرسول ﷺ، وكان من الطبيعي حين رجع هؤلاء للمدينة أن يتحدثوا عن رسول الله محمد ﷺ، وعن الإسلام، ويتحمسوا له بعد أن اعتنقوه، ويروّجوا له بين قومهم. فكانوا بذلك النواة الأولى الطيبة للإسلام في المدينة ووضعوا بذلك الحجر الأساسي للعظمة والقداسة التي تمتعت بها بعد ذلك.

فقد زاد عدد القادمين لموسم الحج في العام القادم الراغبين في الإسلام، ولقيهم الرسول وتحدث معهم، فأسلموا. وكان عددهم اثني عشر من قبيلة الخزرج ورجلين من قبيلة الأوس. واجتمعوا مع الرسول سرًا بين جبال العقبة حول جمرة العقبة أو الجمرة الثالثة الكبرى. وبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فسميت هذه البيعة بيعة العقبة الأولى.

بيعة العقبة الأولى

من الأوس: أبو الهيثم بن القيهان، عويم بن ساعدة.

من الخزرج: أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، معاذ بن الحارث، رافع بن مالك، ذكوان ابن قيس، عبادة بن الصامت، يزيد بن ثعلبة، العباس ابن عبادة، عقبة بن عامر، قطبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعاد هؤلاء للمدينة، ومعهم مصعب بن عمير

وعبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من قبل الرسول ﷺ ليتعهدا المسلمين الجدد هناك بالتعليم والتفقيه في أمور دينهم، ويدعوا الآخرين إلى الإسلام – وكان حقلا جديدًا خصبًا أتاحه الله للإسلام حتى أصبح حديثه على لسان أهل المدينة وشاغلهم، وزاد عدد الداخلين في الإسلام، وفيهم بعض زعمائهم، فلم يحل موعد الحج في العام الثالث حتى كثر عدد المرتحلين إلى مكة ليقابلوا رسول الله ﷺ.

وعلم رسول الله ﷺ بذلك، وتواعد معهم على اللقاء سرا في منعطفات جبال العقبة بعد أن يتموا حجهم. وتولدت في هذا الجو المتفتح بالبشر والأمل فكرة انتقال الرسول للمدينة. وفكر الرسول ﷺ لماذا لا يترك مكة للمدينة بعد أن كثر عدد المسلمين فيها، وأصبحت بيئة صالحة لنشر الإسلام وحماية الدعوة. ومكة في مدى ثلاث عشرة سنة لم يسلم فيها قدر من أسلم في المدينة، ولا زالت تقف للإسلام بالمرصاد حتى لم يعد فيها أمل.

وهناك في ستر من الليل اجتمع بهم الرسول، ومعه عمه العباس ليأمن على ابن أخيه فيما هو مقدم عليه وبايعوا الرسول على أن يهاجر إليهم ويحموه ويحموا دعوته، وكانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأتين.. فكانت هذه هي بيعة العقبة الثانية.

وعادوا للمدينة يحملون خطة جديدة ويحملون معهم للمستقبل نصرا للدعوة. ورأى الرسول أن ينظم أمرهم هناك حتى يلحق بهم، فجعل عليهم اثني عشر نقيبا يتعهدونهم في أمر دينهم وفيما أخذوا مواثيقهم عليه.

بيعة العقبة الثانية

عدد المبايعين (٧٣) رجلا وامرأتان وهم:

من الأوس: أسيد بن حضير، سعد بن خثيمة، رفاعة بن عبد المنذر، (وهؤلاء من النقباء) أبو الهيثم ابن التيهان، سلمة بن سلامة، ظهير بن رافع، أبو بردة بن دينار، فهير بن الهيثم، عبد الله بن جبير، معن بن عدي، عويم بن ساعدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

من الخزرج: أسعد بن زرارة، سعد بن الربيع، عبد الله بن رواحة، رافع بن مالك، البراء بن معرور، عبادة بن الصامت، سعد بن عبادة، المنذر بن عمرو، عبد الله عمرو بن حرام (وهؤلاء من النقباء)، خالد ابن زيد، معاذ بن الحارث، عوف بن الحارث، معوذ ابن الحارث، عمارة بن حزم، سهل بن عتيك، أوس ابن ثابت، زيد بن سهل، قيس بن أبي صعصعة، عمرو ابن عزية، خارجة بن زيد، بشير بن سعيد، عبد الله بن زيد بن ثعلبة، خلاد بن سويد، عقبة بن عمرو، زيادة بن لبيد، فروة بن عمرو، خالد بن قيس، ذكوان بن عبد قيس، عباد بن قيس، الحارث بن قيس، بشر بن البراء بن معرور، سمنان بن صيفي، كعب بن مالك، سليم بن عامر، قطبة بن عامر، يزيد ابن عامر، كعب بن عمر، صيفي بن سواد، ثعلبة بن غنمة، عمرو بن غنمة، عبس بن عامر، خالد بن عمر، عبد الله بن أنيس، جابر بن عبد الله، معاذ ابن عمرو بن الجموح، ثابت بن الجذع، عمير بن الحارث، خديج بن سلامة، معاذ بن جبل، العباس

ابـن عبـادة بـن نـضلة، يزيـد بـن ثعلبـة، الطفيـل بـن النعمان، معقل بن المنذر، يزيد بن المنذر، مسعود بن زيد، الضحاك بن حارثة، يزيد بن خزام، جبار بن صخر، الطفيل بن مالك، عمرو بن الحارث، رفاعة ابن عمرو، عقبة بن وهب رضي الله عنهم.

من النساء: نسيبة بنت كعب، أسماء بنت عمرو ابن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* * *

وماج المسلمون في المدينة – من رأى منهم رسول الله ﷺ من قبل ومن لم يره – بالفرحة الغامرة. وأمسوا وأصبحوا ينتظرون قدومه هو وأصحابه المكيين، وينتظرون مع مقدمه فجر حياة جديدة لهم، يلتئم فيها شمل ا لقبيلتين المتنازعتين باستمرار، وتندمل فيها جراحاتهم وتختفي فيها أحقادهم، ويعودون في ظل الإسلام إخوة يستريحون من عناء قتال ونزاع شغلا حياتهم.

كان هذا حال المسلمين الجدد في المدينة، أما حال الرسول وأصحابه في مكة فقد ازداد سوءا، لقد علم زعماء قريش بما كان بين محمد ﷺ وبين أهل المدينة. وتسربت أخبار البيعة إليهم، ورأوا فيها أن الخطر الذي يحاصرونه ليقضوا عليه سيفلت منهم، ويجد له متنفسًا جديدًا ورجالا جددًا سيتجمعون حوله ويقوى بهم أمره ويتفاحل خطره؛ حتى يستطيع بهم أن يهدد مكة وينتصر عليها.

لقد ظلوا نحوا من ثلاثة عشر عاما يحاولون الحد من الدعوة الجديدة وخنقها والقضاء عليها، وجربوا في ذلك شتى الطرق، وها هو ذا محمد سيفلت منهم ويخرج أمره من أيديهم، ولا يدرون بعد ذلك ما يكون مصيرهم؟ فلا بد إذن من عمل حاسم.

* * *

وبدأت الحملة الجديدة الجنونية على الرسول وصحابته، الاضطهاد لم يعد يجدي ولا يحقق الهدف، فلا بد معه إذن من تفكير في عمل جديد، لا بد من القضاء على حياة هذا الداعي الذي أقضّ مضجعهم كل هذه المدة، والذي يفكر في الخروج ليكون بعد ذلك نهاية مصيرهم. وكان هذا كله مما دفع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتعجيل بالهجرة، فأمر أصحابه أن يسبقوه إلى المدينة، ومكث هو في مكة يرقب الحال وينتظر الإذن من ربه.

* * *

وسارت الأيام، وكل تدبير يقترب من نهاية أمره. المسلمون يهاجرون والمكيون يدبرون حتى إذا هاجر المسلمون كلهم أو كادوا.. وحتى إذا انتهى أمر المكيين وتدبيرهم إلى قتل محمد، جاءه الإذن بالهجرة فخرج في ستر من الليل، وبدأ رحلته الرهيبة هو وصاحبه إلى المدينة.

ما الذي حمل المسلمين على ترك ديارهم وأموالهم ومصالحهم، والإقبال على مجهول ليس لهم فيه من عدة لاحتمالاته؟. ما الذي جعلهم يقدمون على هذه التضحية وفيهم الرجل وفيهم المرأة؟

إنه الإيمان.. إنها العقيدة التي تزلزل الرواسي وتقتحم الصعاب، وتهزأ بالأخطار. إنها الهجرة لله.

وكـان هـؤلاء وهـم يتركـون عـلى الرمـال وقـع أقدامهم يسجل لهم التاريخ أروع ما قامت به جماعة انتصارًا لعقيدتها، ويفتح لهم سجلا خاصا بهم من المجد والفخار..

وكـان ممـن حفـظ التـاريخ أسـماءهم مـن المهاجرين والمهاجرات.

المهاجرون إلى المدينة

من المهاجرين: أبو سلمة المخزومي، عامر بن أبي ربيعة، عبد الله بن جحش، أبو أحمد عبد بن جحش، عكاشة بن محصن، شجاع بن وهب، عقبة ابن وهب، أربد بن جميرة، منقذ بن نباته، سعيد بن رقيش، محرز بن فضلة، قيس بن جابر، مالك بن عمرو، زيد بن رقيش، عمرو بن محصن، صفوان بن عمرو، ثقيف بن عمرو، الزبير بن عبيدة، سخبرة بن عبيدة، عمر بن الخطاب، عبد الله بن أم مكتوم، سعد بن أبي وقاص، زيد بن الخطاب، عبد الله ابن سراقة بن المعتمر، سعيد بن زيد، خولي بن أبي خولي، أياس بن بكير، عاقل بن بكير، طلحة بن عبيد الله، حمزة بن عبد المطلب، أبو مرثد بن الحصين، أنسة مولى رسول الله، عبيدة بن الحارث، حصين بن الحارث، سويبط ابن سعد، خباب مولى عتبة بن غروان، الزبير بن العوام، أبو حذيفة بن عتبة، عتبة بن غزوان، ربيعة بن أكثم، تمام بن عبيدة، محمد ابن عبد الله ابن جحش، مصعب بن عمير، عمار بن ياسر، بلال (المؤذن)، عمرو بن سراقة بن المعتمر، خنيس بن خذافة السهمي، واقد بن عبد الله التميمي، مالك بن أبي خولي، خالد بن بكير، عامر ابن بكير، صهيب بن سنان، زيد بن حارثة، مرثد الفنويان، أبو كبشة مولى رسول الله، الطفيل بن الحارث، مسطح بن أثاثة، طليب ابن عمير، عبد الرحمن بن عوف، أبو سبرة بن أبي رهم، سالم مولى أبي حذيفة، عثمان بن عفان، وآخرون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

من المهاجرات: أم سلمة، زينب بنت جحش، حمنة بنت جحش، أم حبيب بنت جحش، جدامة بنت جندل، أم قيس بنت محصن، أم حبيب بنت تمامة، آمنة بنت رقيش، سخبرة بنت تميم رضي الله عنهن.

* * *

حل هؤلاء المهاجرون الأبطال على إخوانهم المسلمين في المدينة، الذين سماهم القرآن «الأنصار»، ومنهم تكونت النواة القوية للمجتمع الإسلامي الأول الذي حمل أعباء الدعوة في منطلقها الجديد، واستحق من الله الرضا والمغفرة.

* * *

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(١).

* * *

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

صدق الله العظيم.

==========

(١) الأنفال آية ٧٤.

(٢) الزمر آية ١٨.

من حديث القرآن عن الرسول ﷺ

بقلم: الأستاذ محمد الدسوقي

١- تحدث القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ في آيات كثيرة، بعضها يبين مهمة الرسول وأصول الدعوة التي بعث بها إلى الناس كافة، وما اتصف به من أخلاق حميدة وصفات كريمة، وبعضها الآخر يشير إلى ما لاقاه الرسول وأصحابه من أذى المشركين وعنت الكافرين وما جرى بينه وبينهم من أحداث، وما حققه الله في النهاية من نصر مؤزر لدينه ونبيه ومن آمن به، فضلا عن أن سورة من سور الكتاب العزيز قد سميت بسورة «محمد» عليه السلام، ولا سبيل هنا للحديث عن كل ما جاء في القرآن عن الرسول، فهذا يحتاج إلى بحث مستفيض، لا تفي مقالات بله مقالة واحدة به، ولهذا أقصر حديثي في تحية ذكرى مولد الرسول ﷺ على آيتين مكيتين[1] على أرجح الآراء، وردتا في آخر سورة التوبة وهما: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨-١٢٩). والآية الأولى تتحدث عن صلة الرسول ﷺ بقومه، على حين تتحدث الآية الثانية عن صلة الرسول بربه..

٢- والصلة بين الرسول وقومه كما أجملت الآية تقوم من جانب الرسول على حرصه على قومه ورحمته بهم، فهو يريد لهم أن يسلكوا طريق الخير ويتبعوا دعوة الحق، ويدعوا ما هم عليه من الشرك والكفر ليفوزوا برضوان الله وينجوا من عذاب النار، وقد تحمل في سبيل ذلك كل ألوان الأذى والاضطهاد فما زادته الشدائد إلا رحمة بقومه وحرصًا عليهم، علّهم يهتدون ويؤمنون.

والآية الكريمة في مستهلها تقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ولم تقل جاءكم رسول منكم، وذلك التعبير أدل على نوع الوشيجة التي تربط الرسول بقومه، فهو بضعة من أنفسهم تتصل بهم اتصال النفس بالنفس، وهذا لا يجعل الرسول أمام قومه موضع التهمة في النصيحة لهم والرأفة بهم، ومن ثم كان لذلك التعبير إيحاء أخاذ

يسيطر على الإحساس والشعور، ويفضي إلى الألفة والمحبة والارتياح.

وللمفسرين في هذا الجزء من الآية رأيان: رأي يرى أن الخطاب فيه للعرب خاصة، وهو رأي الجمهور[٢]، وإن معنى أنفسكم على هذا الرأي أي من جنسكم ونسبكم، فهو عربي مثلكم تعرفونه وتفقهون عنه.

والرأي الثاني يذهب إلى أن الخطاب للبشر جميعًا على الإطلاق، ومعنى كونه من أنفسهم، أي من جنس البشر، وقد رجح بعض[٣] المحدثين من المفسرين الرأي الأول، لأن الرسول وإن بعث للناس جميعًا قد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة، والعجم آمنوا بدعوة العرب ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الإسلام فيهم، فالآية في خطابها للعرب إنما تذكر فضل الله عليهم بأن اختار منهم رسولا كريما رحيما لا يجهلونه، فعليهم أن يلتفوا حوله ويسمعوا لقوله، ويكونوا لرسالته حماة ودعاة.

٣- ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» يقتضي مدحًا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها، وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح»[٤].

والذي لا جدال فيه أن الله تبارك وتعالى يصطفي لتبليغ وحيه، أطهر خلقه نسبًا وأكملهم خلقا، وأن خاتم الأنبياء والمرسلين قد اجتمع له من الفضائل والشمائل ما لم يجتمع لغيره من الخلق، فكان عليه السلام المثل الأعلى للإنسان الكامل في كل شيء، وليس أدل على ذلك من ثناء ربه عليه، حيث قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

وقد قرأ بعض القراء بفتح الفاء «من أنفسكم» من النفاسة، والمراد الشرف، وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أشرف العرب وأفضلهم، وهي قراءة شاذة عرض لها ابن جني في كتابه «المحتسب»[٥] محاولًا الاحتجاج لها فقال: معناه من خياركم ومنه قولهم: هذا أنفس المتاع، أي أجوده وخياره، واشتقه من النفس، وهي أشرف ما في الإنسان.

وقد رفض هذه القراءة بعض المحدثين[٦]؛ لأنها من جهة خبر واحد لا يثبت به القرآن، ومن جهة أخرى أن المعهود في فصيح الكلام أن النفيس

والأنفس مما يوصف به الأشياء لا الأشخاص.

٤- وأما قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، فهو يدل في إيجاز معجز على مبلغ ما كان يشعر به الرسول نحو قومه ويحمله لهم في فؤاده، ويسعى جاهدًا لتحقيقه، إنه يدرك تمامًا مصيرهم المحتوم إذا ظلوا سادرين في غيهم، ويدرك في الوقت نفسه أنهم عن هذا المصير غافلون أو به كافرون، وهو لا يرضى لهم أن يكونوا وقودًا للنار أو أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا أذلة مستضعفين، ولكنه عليه السلام يرجو أن يكون لقومه شرف الدعوة إلى رسالة الخير والبر والسلام والوئام، وأن يكونوا طليعة خير أمة أخرجت للناس تتمثل فيهم كل خلال الفضيلة والكرامة والعزة والسيادة، من أجل ذلك صبر وصابر وجاهد وقاتل، وكان وهو في أشد لحظات الألم مما يفعله قومه يسأل الله لهم الهداية، ولا يستجيب لرغبة من طلب منه الدعاء عليهم، فقد روي أن بعض المسلمين بعد غزوة أحد قال للرسول – وقد شج وكسرت رباعيته –: لو دعوت عليهم، فقال: «إني لم أبعث لعانًا، ولكن بعثت داعيًا ورحمةً، اللّهم، اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

فلم يقتصر على رفض الدعاء عليهم؛ بل عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ودعا لهم بالهداية؛ لأنهم قومه ولأنهم لا يعلمون[٧].

وقد أسلفت آنفا أن هذا الجزء من الآية يدل في إيجاز معجز على مدى حرص الرسول على كل ما ينفع قومه في الدنيا والآخرة، لأنه يلخص في ألفاظ معدودة كفاح الرسول في سبيل إخراج قومه من الظلمات إلى النور، والتعبير بكلمتي «عزيز وعنتم» له دلالته القوية في الإشارة إلى ما كان يلم بالرسول من ألم نفسي حاد حين يرى قومه يعكفون على ما يشقيهم ويرديهم، وذلك أن معنى[٨] كلمة عزيز أي صعب، والعنت الإثم أو كل أمر شاق مهلك، صعب على الرسول أن يصمت دون دفعه ويقف دون الجهاد لدحضه.

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فالحرص لغة فرط الشره، أو شدة الرغبة في الحصول على المفقود أو العناية بحفظ الموجود، فالرسول كان مهتما كل الاهتمام، وحريصا أبلغ الحرص على أن يحول بين قومه وحياة الضلال والفساد والتخلف والجمود، وأن يدفع بهم إلى الدخول في دين الله ليعيشوا أحرارًا كرامًا لا يخشون إلا الله ولا يرضون بالدنية في دينهم ودنياهم.

وقد وردت في القرآن آيات عديدة سوى هذه الآية، تتحدث عن حرص الرسول على هداية قومه وتبرز في جلاء أن هذا الحرص كان شغله الشاغل بعد بعثته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ

ٱلنَّـاسِ وَلَـوۡ حَرَصۡـتَ بِمُـؤۡمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣) وهـذه الآيـة جـاءت في سـورة يوسـف[٩] بعـد ذكـر قصته عليه السلام، لأن العرب سألت الرسول عن هـذه القـصة، فلـما نـزل الـوحي بهـا ظـن الرسـول أن قومه سيؤمنون به، غير أنهم لم يستجيبوا له، فحزن لـذلك، لأن مـا كـان يحـرص عليـه ويجهـد في سبيله لم يتحقق، فنزلـت هـذه الآيـة تسلية للرسـول ﷺ[١٠] وتشير إلى أن الهداية أولا وأخيرا مردها إلى الله، وأن حرص الرسول لن يغير ما سبق في علم الله كما قال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُـدَىٰهُمۡ فَـإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡـدِي مَن يُـضِلُّ﴾[١١]. و﴿إِنَّـكَ لَا تَهۡـدِي مَـنۡ أَحۡبَبۡـتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[١٢].

٥- وفي الجـزء الأخـير مـن هـذه الآيـة التـي تتحـدث عـن صـلة الرسـول بقومـه يخلـع الله جـل جلالـه عـلى رسـوله صـفتين مـن صـفاته، همـا صـفة الرأفة والرحمة اللذين يعتبران من أهم صفات الجمال القـدسي[١٣]، ومـن أبـرز الأسـماء الحـسنى فيقـول: ﴿بِـٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِـيمٞ﴾ وقد قال[١٤] بعض الـسلف: إن الله سبحانه لم يجمع لأحـد مـن الأنبيـاء بين اسمين من أسمائه إلا لمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإنه قال عنه: ﴿بِـٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِـيمٞ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[١٥].

ولعلـماء اللغـة آراء[١٦] متباينـة في تفـسير معنـى الرأفـة والرحمـة مـن حيـث العلاقـة بينهما، فهنـاك مـن يرى أن الكلمتين مترادفتان، على حين يرى آخرون أنّ الرأفة أشد الرحمة، وقال بعضهم: إن الرحمة أعـم مـن الرأفة؛ لأن هـذه لا تكـون مـع الكراهيـة، وتلـك تقع مع الحب والبغض، فالإنسان قد يرحم عدوه لكنه لا يحنو عليه ولا يهش له.

ومـع اخـتلاف آراء اللغـويين في تحديـد مـدلول الرأفـة والرحمـة فـإن الـذي لا جـدال فيـه ولا اخـتلاف عليـه أنهـما صـفتان مـن صـفات الكـمال الإنـساني الـذي تطمـح إليـه النفـوس المطمئنـة والأفئـدة المؤمنـة، فمـن اتـصف بالرأفـة والرحمـة فهـو الإنـسان الكامـل الـذي يحمـل بـين جنبيـه قلبًـا لا يعـرف الغلظـة ولا يجـنح إلى القـسوة، ولا تـستبد بـه شـهوة الانتقـام مـن أعدائـه والمسيئين إليه، لأن إحساس الصفح والعفو لديه أقوى وأغلب، ومشاعر الإحسان والحنان أشد وأظهر.

والـنص في الآيـة عـلى أن الرسـول بـالمؤمنين رؤوف رحيم لا يعني أنه ليس بغيرهم رؤوفًا رحيما، فقد بعثه الله رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وما كان حرص الرسول على هداية قومه إلا لونا من الرأفة والرحمة بهم، ولعل تخصيص المؤمنين في هذه الآية جاء في مقابلة ما أمر به عليه السلام من الغلظة عـلى الكفـار والمنـافقين[١٧]، وربـما لأن الآيـة حـين أشادت بالرسول في حرصه على هداية قومه، وما كان

يشعر به من الأسى إذا رأى منهم إصرارًا على ما يشقيهم، كان ختام الآية إشارة إلى أن الرسول إذا كان يحمل في قلبه تلك المشاعر النبيلة، نحو من لم يؤمن به فهو بالنسبة لمن صدقه واتبعه وسلك معه طريق النجاة والفوز صورة فريدة من الحنان والشفقة والعطف والرعاية، ويكفي أن الله تبارك وتعالى وصف نفسه في آيات كثيرة بما وصف به رسوله في هذه الآية، فهي رأفة ورحمة مستمدة من رأفة الله ورحمته بعباده، وهو فضل عظيم أسبغه المولى سبحانه على نبيه والمؤمنين به، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[18]، فقد وصفه الله تعالى بأنه يلين لهم، وأن هذا اللين صادر عن قسط عظيم منحه الله إياه من رحمته جل جلاله، لهذا أنس المسلمون إلى رسول الله ﷺ من رجال ونساء، كما يأنس الأطفال إلى الأمهات والآباء، وكان أنسهم منبعثا عن حب وإجلال واطمئنان إلى سماحة نفسه ورأفته ورحمته[19].

٦- وأما مظاهر رأفة الرسول ورحمته بالمؤمنين فهي كثيرة ومتنوعة، وقد أشرت إلى أن تخصيص المؤمنين برأفة الرسول ورحمته لا يعني أنه ليس بغيرهم رؤوفا رحيما، فهو عليه السلام الرحمة المهداة إلى الناس جميعا، ولم يكن الرسول رحيما بالإنسان فقط؛ ولكن رحمته وشفقته وبره شمل الأناسى والحيوان مما يؤكد أنه عليه السلام لا يدانيه أحد في أخلاقه، وأنه قد اجتمع له من الشمائل والفضائل ما لم يجتمع لغيره، ولا غرو فقد اجتباه ربه لرسالته وعلمه، فأحسن تعليمه ومدحه في كتابه بالخلق العظيم. وهو لكل ذلك المثل الأعلى في الفضائل والأسوة الحسنة لمن أراد نعيم الدنيا والآخرة، وصدق الله حيث قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[20].

ومن مظاهر رأفة الرسول بالمؤمنين أنه كان إذا سمع بكاء الصبي وهو في الصلاة – وكان النساء يصلين في المسجد خلف الصفوف – تجوز في الصلاة وتعجل فيها شفقة ورحمة بوالدته، وكان إذا أم الناس في الصلاة تخفف رأفة بالضعفاء وذوي الضرورات، وكان لا يجلس إليه أحد من أصحابه وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته؛ بل كان في موعظته للناس – وهي من أهم الأمور – يقصد إلى التخفيف شفقة ورحمة بهم، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

ومما يروى أن أعرابيا جاء إلى الرسول ﷺ يطلب عطاء فأعطاه، ثم قال له: هل أحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون من

هـذا الـرد الجـافي وهمـوا بـه، فأشـار الرسـول إلـيهم أن كفوا، ثم قام فدخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ثم قال: هل أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك من أهل وعشيرة خيرا، فقال له النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدروهم عليك، قال: نعم، فلما كان الغد جاء الأعرابي، فقال الرسول لأصحابه: إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزودنا، فزعم أنه رضي، أكذلك؟ فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا، فقال عليه السلام: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها واستوى عليها، وأنا لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار(٢١).

فهذا موقف رائع من مواقف الرسول يدل على حكمة وكياسة كما يدل على حلم وعفو ورأفة ورحمة، ويرشد المسلمين إلى ما يجب أن يكونوا عليه من معاملة مثل هذا الأعرابي بالتي هي أحسن، حتى يكونوا دائما دعاة تآلف ومحبة، وحتى يظل المجتمع الإسلامي صورة حية واقعية للقيم والمبادئ التي صلح عليها أمر الدنيا والآخرة، ولا مجال هنا للنص على كل مظاهر رأفة الرسول ورحمته فهي كما أسلفت كثيرة ومتنوعة، ويمكن لمن أراد أن يقف عليها ويتزود منها أن يرجع إلى بعض أمهات كتب الحديث والسيرة وبعض المؤلفات الحديثة التي تناولت هذا الجانب في شخصية الرسول ﷺ(٢٢).

٧- وأما الآية الثانية وهي التي تتحدث عن صلة الرسول بربه فإنها تخاطب الرسول عليه السلام بأن يلجأ إلى الله إن أعرض عنه قومه، إنها تصل الرسول بالقوة التي تحميه وتكفيه؛ لأن الله وحده هو صاحب الحول والطول، وإليه ينتهي الأمر كله..

إن الله سبحانه يعلم أن رسوله لن يدخر وسعًا من أجل هداية قومه، وأنهم سيعرضون عنه ويؤذونه في نفسه وأهله وأصحابه، وأن هذا الإيذاء والإعراض سيكون مصدر ألم للرسول، لأنه حريص على هداية قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فجاءت هذه الآية بعد تلك الآية التي امتن الله فيها على قومه بإرسال رسول منهم يعطف عليهم ويرأف بهم، لتكون بمثابة التسلية للرسول والتذكير له بأن يلجأ إلى الله إن أعرض عنه قومه، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير.

٨- وبعد فإن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاهد في الله حق جهاده حتى بلغ الرسالة، وأدى الأمانة،

ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وإذا كان عليه السلام في حياته حريصًا على هداية قومه فإنه بعد أن هداهم الله كان أشد حرصًا على اعتصامهم بما جاءهم به ودعاهم إليه ليظلوا خير أمة أخرجت للناس تنشر الخير وتحمي الحق، وتأخذ على أيدي الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ولهذا حذرهم قبل وفاته من كل ما يوهن عقيدتهم أو يفرق وحدتهم، وكان جماع ما أوصاهم به قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنة رسوله».

والمسلمون اليوم وهم يمرون بفترة عصيبة في تاريخهم ويواجهون عدوًّا أثيما يمكر بهم ويسعى دائبا للقضاء عليهم وعلى مقدساتهم، لا مناص لهم من أن يعضوا بالنواجذ على ما حضهم عليه نبيهم وأوصاهم به حتى لا يضلوا طريق الإيمان الصحيح، وسبيل الحياة العزيزة الكريمة التي خلقوا لها وأمروا بالحفاظ عليها والموت دونها، وصدق الله العظيم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٣).

* * *

الهوامش:

(١) يرى بعض المفسرين أن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن، والراجح أنهما مكيتان، وقد نزلتا في أول زمن البعثة (انظر تفسير المنار ج١٠ في صدر تفسير سورة التوبة وج١١ ص٩١، ط: المنار).

(٢) انظر تفسير الطبري ج١٤ ص٥٨٤، ط: دار المعارف، والقرطبي ج٨ ص ٣٠١، ط: دار الكتب، والآلوسي ج٣ ص٣٩٢ ط: بولاق، وابن كثير ج٤ ص٢٧٥.

(٣) تفسير المنار ج١١ ص: ٨٧.

(٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص: ٢٧٥.

(٥) ج١ ص: ٣٠٦، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٦) تفسير المنار، ج١١ ص: ١٩٠.

(٧) انظر من أخلاق النبي، للدكتور أحمد الحوفي، ص: ١٨٧، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٨) انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، ج٤ مادتي عز وعنت. ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٩) الآية: ١٠٣.

(١٠) انظر القرطبي ج٩ ص: ٢٧١.

(١١) الآية ٣٧ في سورة النحل.

(١٢) الآية ٥٦ في سورة القصص.

(١٣) مجلة الأزهر السنة الخامسة والثلاثون ص ٢٧٠.

(١٤) انظر القرطبي ج٨ ص ٣٠٢، ومجمع البيان في تفسير القرآن ج١ ص ١٦٩ ط: بيروت.

(١٥) الآية ٦٥ في سورة الحج.

(١٦) انظر مثلا لسان العرب مادتي رأف ورحم.

(١٧) قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ آية ٧٣ التوبة، ٩ التحريم، على أن هذه الغلظة في جوهرها رحمة بهؤلاء الكفار والمنافقين.

(١٨) الآية ١٥٩ في سورة آل عمران.

(١٩) انظر من أخلاق النبي. ص: ١٩٤.

(٢٠) الآية ٢١ في سورة الأحزاب.

(٢١) انظر رسالة النبي ص ١٩ ط: جريدة الأهرام سنة ١٣٧٠.

(٢٢) وذلك مثل محمد المثل الكامل للمرحوم جاد المولى، وبطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ومن أخلاق النبي للدكتور أحمد الحوفي.

(٢٣) الآية ٨ من سورة المنافقون.

* * *

الرّسول المعلّم ﷺ

بقلم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

نصُّ القرآن الكريم على كون الرسول ﷺ معلِّمًا

لقد أثبَتَ القرآنُ الكريم أن رسول الله ﷺ معلِّمٌ للناسِ والبشريةِ جميعًا، على أُمِّيَّته وصَحْراويَّة بيئته.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[2].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

إثباتُ السنَّة أنَّ الرسول ﷺ معلِّم هادٍ بصير

لقد أَثبَتَتْ السنة المطهّرة أيضًا أن رسول الله ﷺ معلِّمٌ هادٍ بصير.

١- رَوى ابنُ ماجَهْ في «سُننه» والدَّارِميُّ في «سُنَنه»، واللفظ لابن ماجه[4]، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما[5]، قال: «خَرَج رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم من بعض حُجَره، فدخَلَ المسجد، فإذا هو بحَلْقَتين: إحداهما يَقرؤون القرآن ويَدعون الله تعالى، والأخرى يَتعلَّمون ويُعلِّمون، فقال النبي ﷺ: كلٌّ على خَيْر، هؤلاء يقرؤون القرآن ويَدْعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء مَنَعهم، وهؤلاء يُعلِّمون ويَتعلَّمون، وإنما بُعِثتُ مُعلِّمًا، فجَلَسَ معهم»[6].

٢- ورَوى مسلم في كتاب الطلاق من «صحيحه»[7]، في قصة تخيير النبي ﷺ زوجاتِه الشريفات رضي الله عنهن، وقد بَدأ بعائشة منهن فاختارَتْه رضي الله عنها، ورَغِبَتْ منه أن لا يُخبِرَ غيرَها أنها اختارَتْه، فقال لها عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله لم يَبعثني مُعَنِّتًا ولا مُتَعنِّتًا، ولكن بَعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»[8].

٣- ورَوى مسلم أيضًا[9] عن معاوية بن الحَكَم السُّلَمي رضي الله عنه، قال: «بَيْنا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ، إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلتُ: يَرحمُك الله، فرَمَاني القوم بأبصارهم!

فقلتُ: وا ثُكْلَ أُمِّيَاه![10]، ما شأنُكم تَنظرون إليَّ؟! فجعلوا يَضرِبون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتُهم يُصمِّتُونني سكَتُّ.

فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ دَعاني، فبأبي هو وأُمِّي[11]، ما رأيتُ مُعلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا

منــه، فــوالله مــا كَهَــرني[١٢]، ولا ضَرَبنــي، ولا شَتَمني[١٣]، قال: إنَّ هذه الصلاة لا يَصْلُحُ فيها شيء من كلام الناس، إنما هُوَ التسبيحُ، والتكبيرُ، وقراءةُ القرآن»[١٤].

شهادة التاريخ بكمال شخصية الرسول ﷺ التعليمية

وكذلك أثبَتَ التاريخُ أن رسول الله ﷺ كان معلِّمًا وأيَّ معلم؟ فنظرة يسيرة إلى ما كانت عليه البشريةُ قبلَ رسول الله ﷺ، وإلى ما آلَتْ إليه البَشَرِيَّةُ بعد رسالته، تُعطينا أوضحَ شاهدٍ ودليلٍ على ثبوت ذلك.

وإذا لاحظنا النماذجَ المعلِّمة الهادية من النوع الإنساني، التي شاهدتها البشرية بعد الرسولِ المعلِّم ﷺ رأيناها تدلُّ أقوى الدلالة على عِظم هذا المعلِّم المربِّي الكبير، الذي تَتقاصَرُ أمامَه أسماء كلِّ الكبار الــذين عُرِفــوا وذُكــروا في عــالَم التعلــيم والتربيــةِ وتاريخِهما.

فأيُّ معلِّم من المربِّين تخرَّج على يديه عددٌ أوفَرُ وأهدى من هذا الرسول الكريم، الذي تخرَّج به هؤلاء الأصحابُ والأتباع؟ فكيف كانوا قبلَه؟ وكيف صاروا بعده؟! إن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليلٌ ناطق على عِظَم هذا المعلِّم المربِّي الفريد الأوحد. وهذا يُذكِّرنا بكلمةٍ طيبةٍ جدًا لبعض الجَهَابذة الأصوليين، يقول فيها: لو لم يكن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معجزةٌ إلَّا أصحابَه، لَكَفَوْه لإثبات نبوته[١٥].

* * *

الهوامش:

(١) من سورة الجمعة، الآية ٢.

(٢) من سورة النساء، الآية ٧٩.

(٣) من سورة سبأ، الآية ٢٨.

(٤) ابن ماجه ١:٨٣ في المقدمة، (باب فضل العلماء والحث على طلب العلم)، والدارمي ص ٥٤ من الطبعة الهندية. وقد روى الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه «الفقيه والمتفقه» ١: ١٠-١١ هذا الحديث من طرق متعددة، فليعد إليه من شاء التوسع في هذا الحديث الشريف.
قال الحافظ السخاوي: هذا حديث غريب ضعيف، لضعف راوٍ في سنده، هو (زياد بن أَنْعُم الإفريقي) لسُوءِ حفظه، ولكن للمتن شواهد. انتهى. نقله شيخنا حافظ المغرب عبد الحي الكتاني رحمه الله تعالى في «التراتيب الإرادية» ٢:٢٢٠.
قال عبد الفتاح: ومن شواهده الصحيحة: حديثُ «صحيح مسلم»الذين أوردتُه بعده.

(٥) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى، في مقدمة «شرحه على صحيح مسلم» ١:٣٩: «فصل: يُستَحَبُّ لكاتب الحديث إذا مَرَّ بذكر الله عَزَّ وجَلَّ أن يَكتُبَ (عَزَّ وجَلَّ) أو (تعالى) أو (سبحانه وتعالى) أو (تبارك وتعالى) أو (جَلَّ ذكرُه) أو (تبارك اسمُه) أو (جَلَّت عظَمَتُه) أو ما أشبَهَ ذلك.
وكذلك يكتبُ عند ذكرِ النبي ﷺ: (ﷺ) بكمالها، لا رامِزًا إليهما – أي الصلاةِ والتسليم – ولا مقتصرا على أحدهما.
وكذلك يقول في الصحابي: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فإن كان صحابيًا ابنَ صحابي قال: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا). وكذلك يَترضَّى ويترَحَّم على سائر العلماء والأخيار – أي يُستَحَبُّ ذلك أيضًا –، ويَكتُبُ كلَّ هذا وإن لم يكن مكتوبًا في الأصل الذي يَنقُلُ منه، فإن هذا ليس روايةً وإنما هو دُعاء.
وينبغي أن يَقرأ كلَّ ما ذكرناه وإن لم يكن مذكورًا في الأصل الذي يَقرأ منه، ولا يَسأمَ من تكرُّرِ ذلك، ومن أَغفَلَ هذا حُرِمَ خيرًا عظيمًا، وفَوَّتَ فضلًا جسيمًا».
وقال أيضًا رحمه الله تعالى في كتابه «الأذكار» ص١٠٠، في آخر (باب الصلاة على الأنبياء وآلهم تبعًا لهم):
«يُستَحَبُّ الترَضِّي والترحُّمُ على الصحابة والتابعين فمن

بعدَهم، من العلماءِ والعُبَّادِ وسائر الأخيار، فيقال: رضي الله عنه، أو رحمه الله، ونحوَ ذلك.

وأما ما قاله بعض العلماء: إن قوله: (رضي الله عنه) مخصوص بالصحابة. ويقال في غيرهم: (رحمه الله)، فقط: فليس كما قال، ولا يُوافَقُ عليه، بل الصحيحُ الذين عليه الجمهورُ استحبابُه، ودلائلُه أكثرُ من أن تُحصَر.

فإن كان المذكور صحابيًا ابنَ صحابي، قال: (قال ابنُ عُمَر رضي الله عنهما)، وكذا ابنُ عباس، وابنُ الزُّبَير، وابنُ جعفر، وأسامةُ بن زيد، ونحوُهم، لِتَشْمَلَه وأباه جميعًا».

(٦) نعم: إنما بَعَثه اللهُ مُعَلِّمًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا المُعَلِّمُ المُرَبِّي الكبير – ولا أكبرَ منه مُعلِّمًا في البشر –، والهادي الأُمِّيُّ البصير، والرسُولُ المبلِّغُ المُنِير: هو الذي تَدِينُ لتعليمِه وتربيتِه أُمَمٌ كثيرة، وتُبجِّلُه شُعوبٌ وأقوامٌ مختلِفة في شَتَّى أنحاءِ المعمورة، تُعَدُّ بمِئاتِ الملايين، تَخْضَعُ لقولِه، وتَسترشِدُ بهَدْيه، وتَلتمِسُ رِضوانَ الله تعالى في اتِّباعِه والاقتداءِ به.

ومن تأمَّلَ حُسْنَ رعايتِهِ للعَرَبِ مع قَسْوةِ طِباعِهم، وشِدَّةِ خُشونتِهم، وتنافُرِ أمزجتِهم، وكيف سَاسَهم واحتَمَل جَفَاءَهم، وصَبَر على أَذاهم، إلى أن انقادُوا إليه، والتَفُّوا حَوْلَه، وقاتَلُوا أَمامَه ودُونَه أعَزَّ الناسِ عندهم: آباءَهم وأقاربَهم، وآثَرُوه على أَنْفُسِهم، وهَجَرُوا في طاعتِه ورِضاه أَحِبَّاءَهم وأوطانَهم، وعَشِيرتَهم وإخوانَهم، وكان كلُّ ذلك – وأعظَمُ منه – منهم له ﷺ، وهو لم يُمارِسْ الكتابةَ والقراءة، ولا طالَعَ كُتُبَ الماضين، ولا أخبار المُرَبِّين السَّالِفين... من تأمَّل هذا تَحَقَّقَ له بنظرِ العقلِ أنه ﷺ هو المعلِّمُ الأوَّلُ، والنبيُّ المرسَل، وأنه سَيِّدُ العالَمِين. صلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه.

يقول كارليل في حال العرب: «هم قومٌ يَضرِبون في الصحراء، لا يُؤْبَهُ لهم عِدَّةَ قرون، فلما جاءهم النبي العربي، أصبحوا قبلةَ الأنظار في العلوم والعِرفان، وكَثُروا بعد القِلَّة، وعَزُّوا بعد الذِّلَّة، ولم يَمضِ قَرْنٌ حتى استضاءَتْ أطرافُ الأرضِ بعُقولِهم وعُلومِهم».

(٧) ١٠: ٨١.

(٨) المعنِّتُ: الذي يُوقِع غيرَه في العَنَت، والعنَتُ له معان كثيرة، والمناسِبُ منها هنا: المشقَّة، والأذى. والمُتعنِّتُ: هو الذي يَطلب زَلَّة الآخَر وأذاه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: وفي إبهامه ﷺ وعدَم مصارحته ومواجهته لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالزجر، إشعارٌ بأنَّ من دقائق صناعة التعليم أن يَزجُرَ المعلِّمُ: المتعلِّمَ عن سُوء الأخلاق، باللُّطفِ والتعريضِ ما أمكن، من غير تصريح، وبطريقِ الرحمةِ من غير توبيخ، فإن التصريح يَهتك حجاب الهيبة، ويُورِثُ الجُرأةَ على الهجوم بالخلاف، ويُهيِّجُ الحرصَ على الإصرار. أفاده المُناوي في «فيض القدير» ٢: ٥٧٣.

(٩) ٥: ٢٠ في كتاب الصلاة (باب تحريم الكلام في الصلاة...).

(١٠) وا: حَرْفٌ للنُّدبة والحَسْرَة. والثُّكل: فِقدانُ المرأةِ ولَدَها. وأُمِّياه بضم الهمزة وكسر الميم المشددة، بعدها ياء ثم ألف ثم هاء ساكنة للسكت. وهي: نَدْبُ أُمِّي، بياء المتكلم، فتُقلَبُ الياء ألفًا لمدّ الصوت وتَلحقها هاء السكت، فيقال: يا أُمَّاه. وقد يُجمَعُ بين الألف والياء فيقال: يا أُمَّيَاه، كما هنا. للمبالغة في الندب والتحسُّر. والمعنى: وا فَقْدَ أُمِّي إيايَ فإني هلكتُ! أي ما أعظَمَ مُصابَ أمي بي فقد هلكتُ وفَقَدَتْني!

(١١) أي أَفدِيه بأبي وأمي.

(١٢) أي ما نَهَرني.

(١٣) أي ما سَبَّني ولا عابَني.

(١٤) ولفظُ رواية الإمام أحمد في «المسند» ٥: ٤٤٨ «إنما هي التسبيحُ، والتكبيرُ، والتحميدُ، وقراءةُ القرآن». يعني أن الذي يقال في الصلاة هو هذا: التكبيرُ، وحمدُ الله والثناءُ عليه، وقراءةُ القرآن، والتسبيحُ، والتشهدُ، والدُّعاءُ، كما وردت فيها الأحاديث أيضًا. وأما ما سوى ذلك من كلام الناس فيُمنَعُ منه في الصلاة، فلا يجوز فيها تشميتٌ لعاطس، ولا رَدُّ سلام لمسلِّم، ولا جوابُ سؤال لسائل، إذ كلُّ ذلك من الكلام المبطِل للصلاة.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في «شرح صحيح مسلم» ٥: ٢٠ تعليقًا على هذا الحديث الشريف: «وفيه بيانُ ما كان عليه رسول الله ﷺ، من عظيم الخُلُق الذي شَهِدَ الله تعالى له به، ومن رِفْقِهِ بالجاهل، ورَأفتِه بأُمَّتِه وشفقتِه عليهم. وفيه التخلُّقُ بخُلُقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحُسْنِ تعليمه، واللطفِ به، وتقريبِ الصواب إليه».

(١٥) ذكرها الإمامُ القَرَافي في كتابه «الفروق» ٤: ١٧٠ في آخر الفرق ٢٤٢.

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وهـذه الجامعـة الإسـلامية: دارالعلـوم/ ديوبنـد أقـدم وأعـرق جامعـة إسـلامية أهليـة في شبه القارة الهندية، التي كانت فاتحتها في مسجد متواضع عريق عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م بمدرس واحد وتلميذ واحدٍ على أيدي العلماء الغيارى على دينهم وثقافتهم، لتتحول إلى دوحة ضخمة كثـيرة الأفنـان والأغـصان، وممتـدة الفيـوض والنفحات إلى العالم كله.

شهدت هذه الختمة القرآنية التي حضرها أطفال صغار - بنون وبنات - لايتجاوز أعمار معظمهم ستة أو سبعة أعوام، فجلسوا صافين من حول منصة مستوية على وجه الأرض شيئًا، عليها بعض أهل العلم والقراءة والتجويد. فتَلَا كلهم واحدًا بعد واحدٍ - القرآن الكريم تلاوة محبرة غضة طرية شنفت الآذان، واستأسرت الأسـماع، واسـترعت العيـون، واسـتوقفت المـارة،.. تـلاوة تجلـب البكـاء والخـشوع والاعتبـار والتـذكر عنـد سـماع كـلام نعتـه الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وبعـد هـذه الـتلاوة العـاطرة الخلابـة جـاء دور الأسـئلة والأجوبـة؛ حيـث قـام أحـد المدرسين بالكتَّاب، فطرح الأسئلة واحدًا بعد واحدٍ .... أسئلة تخص قواعد التجويد والترتيل والوقف و الوصل، والغنة والإخفاء والإظهار والإشمام ونحو ذلك من صميم قواعد هذا الفـن .... أسـئلة أدق في كثـير مـن الأحيـان، ولايكاد ينتهي المدرس من طرح السؤال حتى تجد طفلًا أو طفلين أو ثلاثة قاموا ليجيبوا عن السؤال المطروح، وينالوا الجائزة المرصودة على الإجابة الصائبة.

جلستُ نحو ساعتين بين هؤلاء الأطفال الصغار الأبرياء، وبين هؤلاء المدرسين الأكفاء الكرام، و والله ما أدري بأيهما أنا أسرُّ وأفرح: أببراءة هؤلاء الصغار وبراعتهم، وحذقهم في هـذا الفـن حسب مستواهم أم بجهود هؤلاء

المدرسين الذين وصلوا ليلهم نهارهم لتعليم الصغار قراءة القرآن الكريم ومبادئ الدين، ولايريدون من وراء ذلك جزاء ولاشكورًا، فوجب أجرهم على الله تعالى بإذنه سبحانه.

وحقًّا، حين تحضر مثل هذه الختمات، وتصغي بأذنيك لمثل هذه التلاوات القرآنية على أفواه أطفال صغار السن أبرياء لايدركون من معنى القرآن شيئًا – تجد نفسك مدفوعًا إلى الشعور بأن السكينة تنزل عليهم، والرحمة تغشاهم، والملائكة تحفهم، وصدق رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذ قال: «ما اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوت الله يتلونَ كتابَ الله ويتدارسُونه بينهم، إلا نزلت عليهم السَّكِينة وغَشِيَتهُم الرَّحمَةُ، وحفَّتهم الملائكةُ، وذَكَرهُمُ اللهُ فيمَن عندَه» [سنن أبي داود: ١٤٥٥].

وإنه حقًّا، من إعجاز هذا القرآن الخالد الباقي ما بقي الليل والنهار ... القرآن الذي جمع هؤلاء وأولئك على قراءة الكلام الإلهي، وتجويده وترتيله، ومدارسته. وهل رأيت في الأرض شرقها وغربها وشمالها وجنوبها كتابًا يحرص الصغار والكبار هذا الحرص الشديد الجامح على أداء كل حرف من حروفه وصوت من أصواته بهذه الدقة المتناهية؟ كلا، إنه القرآن الكريم ... الكتاب الإلهي الذي لايزال يتحدى إعجازه المتناهي العربَ وغيرهم بأن يأتوا بسورة من مثله. فإن «عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته» كما حاول أن يصفه ألد أعدائه وأشدهم حنقًا عليه. وهل لأحدٍ مكنة أن يصفه حق وصفه أبلغَ مما وصف هو نفسه به؟! فوالله، لو أن أعظم الأدباء من كل أمة، وفي كل جيل من الأجيال البشرية اجتمعوا – وكانوا على لسان رجل واحد، وعلى قلب رجل واحد، وكان بعضهم لبعض ظهيرًا على ذلك – لعجزوا وقصروا عن أن يصفوه بأكثر مما وصف به نفسه.

* * *

* *

لقد رأيت من إعجاز هذا القرآن عجبًا

ذات يوم حضرت برنامجًا من برامج ختمة القرآن الكريم في مدينة عريقة من المدن الهندية بدعوة من القائمين على كُتاب من الكتاتيب المتطورة في تعليم القرآن الكريم وتجويده و حفظه، التي تقوم معظمها بنشاطاتها في المساجد والجوامع في مختلف أنحاء البلاد دون أن تستقل بمبنى يخصها شأن العهد القديم الذي كان يشكل فيه المساجد والجوامع كتاتيب و مدارس؛ بل جامعات صار لها صوت وصيت في مختلف أنحاء العالم وليومنا هذا، فهذه جامعة الزيتونة في تونس التي تعد أقدم جامعة في العالم الإسلامي و انتظمت دروسها منذ ٧٣٧م (١٢٠هـ)، وأدت دورًا ملموسًا في نشر الثقافة العربية الإسلامية واللغات والهندسة؛ فقد جاء تأسيسها في جامع الزيتونة، الذي أسّسه عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٦هـ(٧٣٤م)، وشهد تطورًا كبيرًا ليصبح مركزًا تعليميًا أكاديميًّا إسلاميًا رئيسًا في شمال إفريقيا. وهذه جامعة القروين، التي تأسست عام ٨٥٩م، مع بداية تأسيس مدينة «فاس» التي اتخذها الأدارسة عاصمة لدولتهم، وتحولت من مسجد صغير إلى منشأة ضخمة متعددة المرافق بفضل عمليات التوسيع و الترميم الكثيرة. وهذه جامعة الأزهر في مصر، التي تُعتبر ثالث أقدم جامعة في العالم بعد جامعتي الزيتونة والقروين، أنشئت ٣٥٩هـ/٩٧٠م جامعًا باسم (جامع القاهرة)، ثم سمي الأزهر فيما بعد، وبدأت الدراسات في الأزهر في شهر رمضان عام ٩٧٥م، و كان للجامعة كليات في الشريعة والفقه الإسلامي، وقواعد اللغة العربية، وعلم الفلك الإسلامي، والفلسفة الإسلامية، والمنطق.

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري